

لو كان العالم ملكا لنا

بقلم: سعد مكاوى



الكتاب الماسى

لو كان العالم ملكا لنا

بقلم : سعد مكاوى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧



الفن واحد ، كالإنســـان ..

الإنسان واحد ، والفن واحد ..

لهذا أتكلم عن هؤلاء الأصدقاء الخمســـة ـ بتهوفن وليست وفاجنر وموزار وبرليبوز ـ الذين يكلمون الناس بلغة أحبها ، لغة الوجدان .

أتكلم عنهم لأن فى فنهم فضيلة شعرية باقية تنتظر دائما الروح الحساس الذى يلتقطها ، ولأنهم بالفن فاضت أنفسهم حتى صـــارت موسيقاهم ((بلاغة الموسيقى)) التى تفسر الانسان من أعماقه التى تكمن فيها مشـــاعره وانبعـاثاته وأشواقه ومصائره .

وماذا أحب فيهم غير الموسيقى سيدة المكان والزمان ، حبيبتى التى أعود اليها ظامىء الوجدان ـ كلما احتجت الى توازن القلب وسكينة النفس ـ فاذا هى حقا أول العقل ونهايته ، وأول الكلام ومنتهاه ؟

أحب فيهم تلك القمم العالية التى بلغوها بنضالهم العنيد، والتى يتعلم الفنان من فوقها كيف ينظر الى مغريات الحياة دون أن يعتريه الدوار ، فلا يبيع فنـــه ولا يدنس شرفه ولا يتضعضع ايمانه ولا يتملق أحدا ، وأحب اصرارهم على التفاؤل ووعيهم بأن الانسان كبير ونبيل وصاعد الى كمال روحى .

لهذا أحبهم ، وأتكلم عنهم ، وتهفو روحى الى موسيقاهم، وأحب للجمال الذى صنعته حياتهم أن يشيع ، كما أحب لعطر جميل يسعدنى عبيره أن يشيع فيسعد معى كل انسان.

فالانسان واحد ، والفن واحد كالانسان .

سعد مكاوى

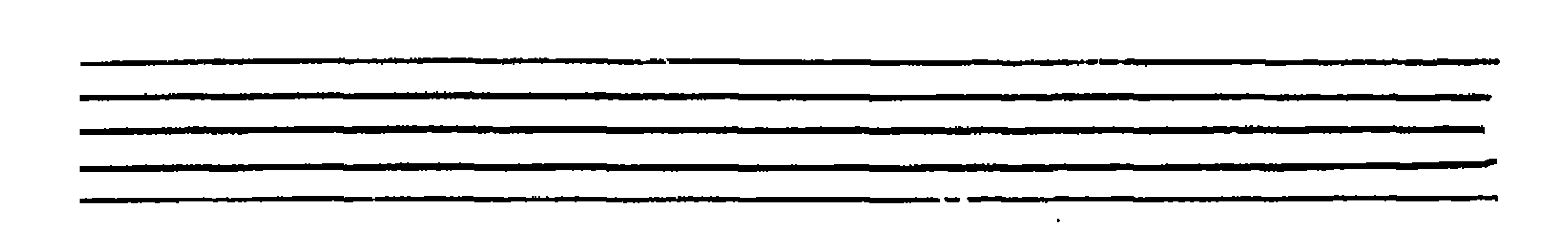
فى هذا الكتاب

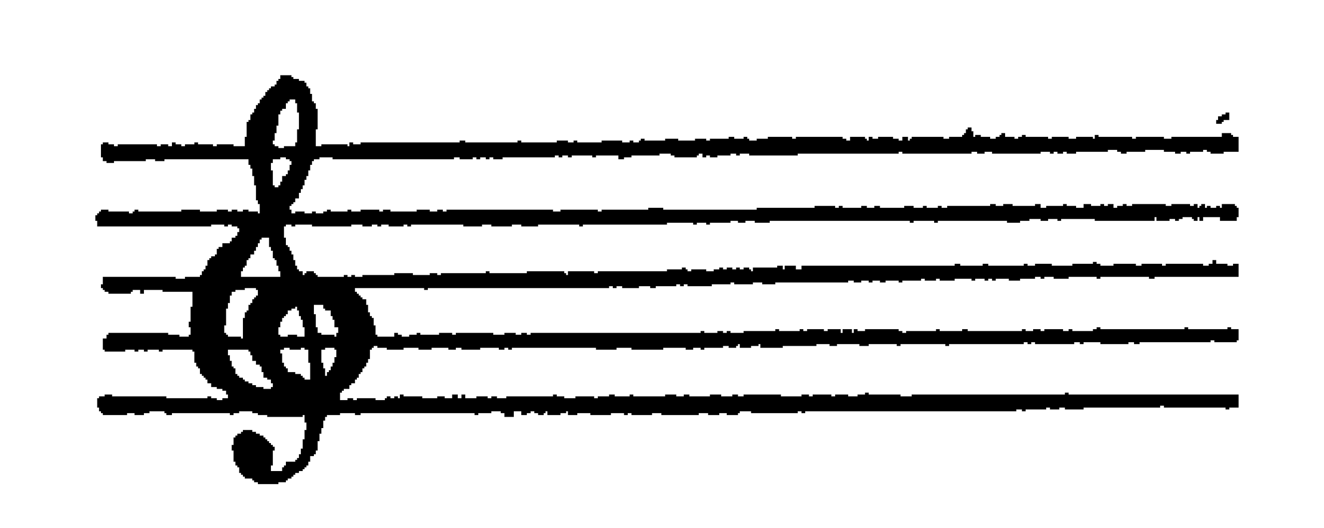


مسكر أمام القدر

(الفن ميدانه كل ما هو صعب ..
وعندما نروض الصعب ، فاننا نفكر
في المستحيل !) .

((جـــوته))





١ — لم يكن عند أبيه وعند الناس الا شيئا طريفا يعرض عرض التحفة الغريبة النادرة !

لم يقم على تعهد موهبته الساطعة المبكرة أساتذة قادرون ، ولم ينل دراسة مطردة منتظمة ، بل كانت وطأة الفقر الملعونة على أسرته الكبيرة حربا على مكنون سره ، وكان أبوه يعشق الكأس ويعود كل فجر فيوقظه من نومه ليراجع تلك التمرينات التقليدية السمجة العقيمة حتى مشرق الصبح ، فلولا سر عبقريته المكنون لغدا كأخيه ومعاصريه الكثيرين فى ذلك العصر الموسوم بطابع الموسيقى ، واحدا من أولئك العازفين الذين « يشغى » بهم كل بلاط ألمانى ، ذلك الانسان العظيم الموعود بالذرى الشامخة ، الذى لم يلق فى صباه الا تعليما سيئا وتوجيها أسوأ !

ولعل أول موسيقى طيبة أتيح له أن يطلع عليها ويدرسها هى المكتبة الموسيقية الراقية التى جاء بها « نيف » عازف الأرغن ، ومن عيونها كتاب البيانو للموسيقى « باخ » ، ذلك القبس من الهدى الذى كان كل تعليمه وكل صباه .. كل آفاقه المهموسة فى دنيا من حرمان وقسوة وصراع .. كل بداية لدفيج فان بتهوفن صاحب السمفونية التاسعة !

هل تعرف السمفونية التاسعة ؟ هل تعرف الطود الشامخ الخالد الذى لا يقارن ولا يقلد ؟ هل تعرف الفرح القدسى الذى انتزع من الناس، عندما سمعوه أول مرة ، صرخات حماسية كالانفجار الروحى ، وأسال الدموع حتى من عيون العازفين ؟ وهل عشت فى ذلك الفيض المبارك عندما تبلغ السمفونية قمتها ، عندما يبزغ الصوت البشرى من الأوركسترا الآلية متغنيا بنشيد الفرح والاخاء ، ويجاوبه الكورس متغنيا بشطرات من قصيدة شيلر التى تدعو البشر الى المضى بشجاعة نحو مستقبل أفضل ، كما يمضى البطل الى النصر ؟ .

و « بون » التى ولد فيها لدفيج فان بتهوفن مدينة رغد وأزهار ونضرة وسكون ، ونهر الراين يجرى عندها كريما جميلا . وبيت آل بتهوفن المتواضع فيه حجرات ثلاث غير بعيد عن السوق ، جحر رطب معتم خاصمه النور وقاطعه الهواء ..

وقد عاش بتهوفن حياته كلها فى عصر بطولى : كان مولده فى أحد أيام ديسمبر من سـنة ١٧٧٠ ، وكانت وفاته فى فيينا فى ٢٦ مارس من سنة ١٨٢٧ ، وكانت رحلته الأولى الى فيينا فى سنة ١٧٨٧ واستقراره النهائى فى سنة ١٧٩٢ ، وكانت السيمفونية الأولى فى سنة ١٨٠٠ وصوناتة ضـوء القمر » فى ١٨٠٢ والسيمفونية البطولية فى ١٨٠٤ وفيدليو فى ١٨٠٥ وكونسرت ديسمبر الكبير فى ١٨٠٨ والقداس والسـيمفونية التاسعة فى ١٨٢٤ . وكلها تواريخ ترسم صورة العصر كلها وتوضح المعالم الرئيسية فى حياة ذلك العبقرى الذى تكون تحت تأثير الأفكار التحررية التى ولدت فى القرن الثامن عشر ، وعاصر الثورة ، وكان شاهدا على الدراسة البونابرتية ، وشارك فى الحركات الفكرية والنفسية التى كانت منبت الرومانسية .. وعندما يرقى الفن تلك المرتفعات ويكون أداة للتعبير عنها ، فانه ينتمى بغير جدال الى التاريخ العام للانسانية .

والأب ، وأصله من اقليم الفلاندر ، كان عازفا فى فرقة البلاط ثم مديرا لكنيسة البلاط الصغيرة ، الى جانب قيامه بأعباء الحفلات الموسيقية والمسرح الملكى وحفلات القصر الراقصة وموسيقى المائدة ، ولا شىء بعد ذلك الا أن يقوم أيضا ببعض الأدوار التمثيلية على خشبة المسرح الملكى .. ولم يكن المرتب الذى يتقاضاه بتهوفن الأب عن كل هذه الاختصاصات المذهلة، من الأمير الذى جار عليه الزمان ، كافيا لاعالة الأسرة ، فكان على الرجل السكير أن يزاول الى جانب كل تلك المهام العجيبة تجارة الأنبذة .. والادمان فى الأسرة وراثى ، وقد مات من سبعة أطفال رزقهم الأب أربعة فى سن مبكرة .. وما كان فى الابن من حساسية وخير فهو هدية من أمه مجدلينا التى كانت فى شبابها خادمة وابنة طباخ فى القصر ، وكان ابنها العظيم يدعوها كلما تحدث عنها « خير الأصدقاء » .. أما الأمـير فهو مكسمليان فرانز آخر أبناء ماريا تريزا وحامى موزار وعاشق الموسيقا .. وكان صاحب ذهن متوقد وقلب مرهف ، وقد تبين الارهاصات الأولى لتلك الحركة الشعبية التى لن تلبث أن تبعث فلاحى فرنسا وقوفا فى وجه عسف النظام القديم ، ورأى بعين البصيرة موجات ذلك الطوفان وهى تبلغ ضفاف الراين ، فحاول أن يفسح السبيل لتيار الحركة الاصلاحية ويشجع التعليم والآداب والفنون ويلغى السخرة والتعذيب .. وقد أتيح لبتهوفن أن يشهد فى اطار ذلك البلاط الصغير الذى ينوشه الانحلال وترهقه الحاجة انهيار النظام الاجتماعى القديم وتصـدع الطغيـان الارستقراطى وأن يرى مجتمعا جديدا يقوم على أنقاض الترف القديم ، وعاش حتى رأى كيف عز المال على أميره حتى عجز عن اضاءة قاعـة المسرح الملكى !

وكان بتهوفن في عامه السابع عشر عندما دخل « فيينا » أول مرة في سنة ١٧٨٧ بعد تحرره من ابيه الذى كان من طراز والد موزار البغيض، والذى لجأ مثله الى كل الوسائل لاستغلال موهبة ابنه الطفل بصـورة اجرامية لا ضمير لها ، ولم يكن لأيهما من هدف الا أن يجعل من طفله الذى مسته العبقرية في مهده بجناحها آلة تدر الذهب وتحفة يدهش بها سادة البلاطات .. ويوم دخل فيينا كان اسمها مدينة الأنغام وعاصمة موزار ، وكان موزار فى الثلاثين معبود فيينا .. وكان المجتمع الفيينوازى طائشا مرحا لطيفا ، ومفتونا بالمسرح والكونسرت .. أما الوسط الموسـيقى نفسه فكان بدوره يعيش في ظل موزار ، والامبراطور نفسه كان يقول عن فن موزار انه من ذهب ! .. وان هى الا أسابيع حتى كتب اليـه أبوه ينبئه بمرض أمه ويستعجله العودة ، فاقترض بعض المال من صديق وعاد الى « بون » ليجد أمه تموت بعلة فى صدرها وليرى ملابسها تباع في السوق .. وجد البؤس على عهده به ساكنا في بيت الأسرة ، والتزم بالقيام مقام أبيه فى عمله وفى تناول مرتبه ، بعد أن استسلم الأب للادمان ولم يعد يرجى منه نفع ، لأنه لم يجد مفرا من أن يكون لأخوته الصغار أبا ، وأن يحيا فيهم حياة كآبة وحرمان وكفاح مر فى سبيل القوت ، وفي سبيل الابقاء على الشعلة المتوهجة فى كائنه الداخلى الفذ ..

وعندما عاد الى فيينا فى نهاية سنة ١٧٩٢ كان قد أنفق من حياته فى وطنه عشرين سنة قضاها كادحا فى سبيل الرزق ، مستوحيا أساطير الراين ذات الطابع الانسانى ومختزنا طاقة ضخمة من الأحاسيس العميقة .. وكان هناؤه الوحيد خلال تلك العشرين سنة ما لقيـه من عطف أسرة « فون برونيج » الارستقراطية التى ذاق فى ظلها أولى لمحات الحنان ودفء الجو العائلى ، كما منحه أحد الأرستقراطيين ، الكونت ڤالدشتين ، عونه وصداقته . ولعله هو صاحب فكرة السفرة الثانية الى فيينا ، فهو الذى زود الموسيقى الموهوب الصغير في هذه المرة بخطابات توصية ، اعجابا منه بأول مجموعة من أعمال الشاب الفنية ، وهى موسيقى تتجلى فيها الصورة الأولى من شخصيته وهى تجاهد للتخلص من كل التأثيرات الواعية وغير الواعية ، نازعة الى التفرد فى التعبير ، وناطقة بقدرته على التلوين وفتنته الحميمة .. وكان موزار قد سكت نايه المسحور وانتقل فى ٥ ديسمبر من سنة ١٧٩١ الى عالم الأنغام الطليقة وعمره خمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر ، فما شيع جثمانه أحد بل قذف به من حملوه بغير

شهود فى مقابر الكافة ، وما يدرى أحد أين قبره ؟ .. أما « هايدن » الذى ذهب بتهوفن الى العاصمة النمسوية عن طريقه ومن أجل الأخذ عنه فقد كانت له رحلاته العديدة التى لا تترك له فرصة للعناية بذلك التلميذ الجديد القادم من ضفاف الراين .. وقد قال هايدن عن بتهوفن الصغير انه يضحى بالقالب فى سبيل الفكرة ، عندما لمس فى أعماله الأولى فى فيينا شخصية تسعى نحو ذروة اكتمالها في « الثلاثية » الأولى وفى الصوناتات الثلاث التى أهداها اليه ــ ولقــــد قال بتهوفن انه لم يكن فى الواقع تلميذ أحد ، حتى هايدن : « لقد أعطانى دروسا ، ولكنى لم أتعلم منه شيئا .. » .

وفتح الأمير ليشنوفسكى قصره للفنان الجديد ، شأن كل شريف من اشراف ذلك العصر يباهى أنداده بعدد ما عنده من الأتباع والخدم والموسيقيين .. الم يكن هايدن وموزار من « أتباع » الأمير استرهازى ! .. ألم يكن شأنهما وغيرهما من الموسيقيين شأن الخدم ، ومعهم ينامون ويطعمون ! .. الم يكن الموسيقى مجرد آلة لانتاج القطع الموسيقية طبقا لرغبات السادة وأوامرهم ! .. لكن هذا الفنان الجديد أقبل كالعصفة فدمر هذا التقليد الوضيع المخجل ، وعلم السادة انهم هم يشرفون بالفن، وأن الفن هو الذى يخلع عليهم مننه وآلاءه ، فلقد فرض لنفسه فى قصر الأمير حق الضيف لا مستوى الخادم ، وبهذه الصفة وحدها فتحت له أبواب قصور استرهازى وكنسلى وفان سفين وغيرهم من الطبقـــة السائدة .. ولم تكن هذه الوثبة المزمجرة الا بداية العاصفة ، فان العاصفة البتهوفينية كانت أقوى من أن تدمر التقاليد الاجتماعية وحدها ، وكان عليها قبل كل شىء أن تثور فى عزة استقلالها وكبرياء أصالتها على تلك الأصول والمواضعات « الهندسية » التى كانت تتحكم فى تأليف الموسيقى وفى عزفها ..

كان على الرجل الذى جاء ليكلم الناس بلغة الوجدان أن يتخلص من تأثير أسلافه ويعبر مرحلة الايمان بهم واعتناق فكرتهم الاتباعية في الفن ، وكان الموسيقى « ڤاجنر » أول من أدرك ذلك الانقلاب الضخم فى عالم الموسيقا ، فأعلنه ، واعتبره نصرا للروح الألمانى وهزيمة للروح الكلاسيكى الفرنسى النشأة .. ان قوة ذاتية بكرا قد انطلقت كالمارد ، بكل قدرتها التعبيرية الفذة . فضربت فى أرض البشر جذورها ثم نمت ومدت فروعها الى السماء لتؤتى كل ثمرها البديع !

٢ — بونابرت وبتهوفن
سلطان المادة وسلطان الوجدان وجها لوجه !

كان بونابرت يزحف وكان بتهوفن يصوغ الألحـــان لأناشيد المتطوعين من قومه للقتال ضد جراد بونابرت المنتشر وضد هدير القوة القادمة من ضفاف السين .. وسجلت القوة انتصارها وصارت « بون » العزيزة مقر حامية فرنسية ، وارتفع صوت بونابرت قائلا للنمسويين فى غطرسة : « ان الجمهورية الفرنسية هى فى أوربا كالشمس على الأفق ، فلا يمارين فيها أحد ، لأنها ليست فى حاجة الى الاعتراف بها ! » .

وفى تلك الأيام من سنتى ١٧٩٦ و ١٧٩٧ التى تنكمش تحت ظل بونابرت كان بتهوفن يظهر للجمهور فى حفلات عامة ، وكان دائبا على الخلق ، وكان فيما يخلق من غرابة الطرافة وعنف التعبير ما جعل معاصريه يفهمونه ببطء بليد .. وتقضت الأعوام وهو فى نظر الجمهور الكبير مجرد عازف بارع على البيانو .. مثله كمثل سواه .. حقا ان له مذاقا فريدا ، ولكن اين هذا من روائع موزار الرشيقة القريبة الى كل أذن ! ..

ان ڤيينا لا تعترف به !

ثلاثيات للبيانو والكمان والڤيولونسيل .. وصوناتات .. وقد كانت الصوناتة قبله ، وفى عصر هايدن وموزار ، عملا روتينيا ، لأنها معزوفة بآلة واحدة ، فجعل هو منها شيئا حيا .. وجعل لكل فاكهة منها مذاقها الخاص .. وأخذ يخلق فى صمت ويحيا فى عزلة .. كل مجتمعه حفنة من الموسيقيين أبرزهم « كارل امندا » الذى كان رفيقا حسنا لبتهوفن وفتح له آفاق الفكر والوجدان وعلمه تذوق حياته الداخلية والايمان بأنها من منابع الفن بؤرة النبع .. وقد قال بتهوفن فى تلك الفترة من حياته عبارته الجميلة : « ان العظمة هى بلوغ الانسان الكمال فى ذاته الباطنة ، فان بلغت من هذا شيئا فيومها أكرس فنى لخير الفقراء ! » .

وهو فى ذلك الشباب متفتح الحس لكل امرأة ، ثم تختار نفســـه واحـــدة ٠٠ ويريد أن يتخـــذها زوجـــة ٠ وهى چوليتا جويكاردى تلميذته التى كان أبوها مستشارا فى البلاط ، وكانت فى الخامسة عشرة ، لعوبا تافهة .. وهى التى أهـــدى اليهـــا صوناتة : Quasi una Fantasia ، التى أطلق عليها أحد الناشرين اسمها الذى اشتهرت به « صوناتة ضوء القمر » .. لكن البنت اللعوب لفظت حبه وتزوجت ملحنا تافها وان يكن يحمل لقب « الكونت دى جالنبرج » ٠٠ وما كانت الأولى ولا الأخيرة من رهط من النساء انطلقن الى رجال آخرين فى غير استجابة لعواطفه ، والى العدم ،لأنهن ذهبن فى التاريخ محرومات من هذا التاج ٠٠ وبقدر تعاسته عاش على حد اقوله ــ بين سنتى ١٧٩٥ ، ١٨٠٠ ــ في « موسيقا مستمرة » .. انه الآن يخلق الألحان الثلاثة أو الأربعة فى وقت واحد ، من فيوض أشرقت بها نفسه المبدعة ، وبقوة لا حدود لها ولا صنعة فيها.. ونحن الآن من فنه فى حديقة الالهام وعند خميلة الشاعرية الموسيقية .. لا اتباع ولا تأليف ولا صنعة ؛ انها موسيقا التأمل وانغـــام « الصوت الداخلى ، ولغة الكون الأزلية .. وتمت غلالات تلك الجمل الموسيقية التى تقطعها سكنات مفجعة مثقلة بالمعانى ، ترتسم كل القوة التعبيرية المتدفقة .. وما فى تلك الموسيقى من تعاقب للقلق وللطمأنينة ــ كأنه رعشات النور والظل ــ ينطوى كله تحت نغم سائد هو صـــدى نفس تسكنها الأحزان .. كل الأحزان : تلك النابعة من أعماق الطفولة وعهد الصبا وتلك الشاكية من الفشل فى الحب وتلك الرهيبة الحارقة من استشعار المرض الفظيع الذى بدأ بألم طفيف فى أذنه ، في عرشه السامى ..

وهو يخشى الآن ان يكون سمعه الى زوال وأن يقضى ما بقى من عمره فى سجن الصمم ، فيهرب من مخاوف النفس الى ذلك الانتـــاج المتصل الغزير الذى يشبه سيلا طليقا من نغم الوجود الحى ، للبيانو مع الكمان ، وللبيانو مع الفيولونسيل ، وللبيانو مع النفير .. وللبيانو مع الاوركسترا .. وانى لأتمثله فى وحدته وليس معه فى ساعة الرقاد الا ذلك الشعور المروع باقتراب الصمم ، وأراه ينحنى على معزفه فى قلب الليل ويرتجف رعبا اذ ينفلت النغم من سيطرته .. وأراه فى ساعة الفجر باكيا بغير دموع أمام نافذته المفتوحة على مدينة طائشة تلهو في غير رحمة ..

ويتركز ذلك القلق المر المخصب فى صورة درامية رائعة فى الصوناتة « الباتشنيك » التى اعتبرها النقاد عندما نشرت فى سنة ١٧٩٩ أية ثورة

إفكرية فذة تكاد تكون ـ كنفس صاحبها ـ وحشية .. اى همس نفسى حميم من أغوار الوجدان الانسانى يبزغ فجأة وبقوة من غمار ذلك المجتمع الطائش ! الذى يلهو بالفن السهل .. ولم يكن أحد قد عرف أن صاحب الصوناتة المؤثرة يظهر له ضعف سمعه المتزايد فى كل مكان كأنه شبح ، وانه صار يهرب من الناس ويبدو فى صورة الرجل النفور ، هو « المحب للانسانية » ..

ولذته الوحيدة هى فنه ، وعاطفته لاتجد مستقرها ، وهى مشبوبة كالنار ، وعاهته مروعة تزحف فى طغيان ، وارادته تحب الحياة وهناءها ، وهى تحترق على نار باطنة موقدة ، كأنها زمجرة تتصاعد من قلب بركان لم يقذف بعد كل حممه .. ومعجزة سيطرت فيها ارادة الحياة على الألم العميق المفجع ، وصار التأمل الباطنى هو وحده وسيلة الفنان الى المعرفة .. وعندما يبدو الفنان نبيا يستلهم فيض الاشراق فانه يسمو الى انقى مراتب الشعر الكامل الخالد .. وعندما يكتب بتهوفن « المسيح على جبل الزيتون » فانه يدخل على المسيح نفسه ويصحبه فعلا في صلواته بالجبل .. ومثله كل الروائع التى ستنثال فى تنوع ووفرة وتغدو عيون الفن الكلاسيكى ، ذلك الربيع الرائع الازدهار المطرد اليها ، ذلك « الجبل من النغم » الذى يخرج من صومعة قديس معذب يزحف اليه الصمم الكامل كالغول البشع ، قديس يتسامى على الألم وعلى كل المشاغل اليومية التى تعوق توثبه للابداع :

« كان ينبغى أن لا يكون فى الدنيا غير متجر واحد للفن ، ما على الفنان الا ان يدخله فيسلم أعماله ويأخذ من المال ما يحتاج اليه ثم يمضى الى الفن بسلام ، فانه لأمر فظيع للفنان أن يكون أيضا تاجرا ! » ..

- ٣ -

كان العامان الحادى والثلاثون والثانى والثلاثون من حياته انتصارا للاعجاز الفنى ، وللذخيرة الباطنية ، ولارادة الحياة . وكانت الظاهرة العامة فى انتاج تلك الفترة من عمره قوة شعرية ملهمة ؛ وغزارة فى الانتاج تزداد النفس أمامها خشوعا كلماذكرت انها خرجت على الدنيا بروائعها وخالقها يصارع عاهة الصمم ويعيش بنفسية الأصم وهو يطلق صرخته المتفجرة : « محروم من كل صلة انسانية ومحادثة شائقة وتجاوب نفسى » ..

حرمان فظيع عندما يكون القلب عامرا بالحب والجمال والخير .. انه لن يسمع الأنسام والترانيم ولن يصغى الى الناى والأجراس والهمسات فى الغابة .. وقد تضعف النفس مدى هنيهة ما أقساها ، فتتراقص خاطرة الانتحار فى ضميره كالشيطان الضرير اليائس ، ثم تنتعش الروح وتمتثل وتتسامى هياما بالفن وطموحا الى الأعالى وحبا للطبيعة وللانسانية ، وتتصاعد زفرته فى رسالة الى صديقه كارل امندا فى أول يونية ١٨٠٢ : « الآن أعتزل العالم وما فيه وأنزوى بغير رجاء فى هناء .. وما زلت أعزف وأؤلف ، ولكن مرضى يحرمنى من نعمة الألفة بالناس ، متحدثا ومستمعا .. » ثم يبعث بكلماته المذعنة الى طبيبة الصديق الدكتور فجلر : « صرت منذ بدات أسمع هذا الطنين فى اذنى ليلا ونهاراً أنفر من الناس ، ولا أقوى على البوح لهم بأنى لا أسمع .. ولكننى تعلمت الاستسلام .. » .

واذا كان قد تأمل فكرة الانتحار قبل أن تتعلق نفسه بأسباب الصبر ، فان من آثار اليأس الذى سكن روحه فى تلك السنة وثيقة تاريخية تعرف بالوصية ، وهى آية على الايمان العظيم فى نفس عظيمة ، فانه يقول فيها للانسانية كلها ان صممه الذى زاده جهل الأطباء سوءا هو علة نفوره

وعزلته ، فلقد قضى عليه فى زهرة الشباب أن لا ينعم بمسرات الاجتماع التى يميل اليها طبعه . وفرضت عليه العزلة فرضا ، فهو محروم من السمر الشهى والعطف المتبادل ، لكنه مع ذلك ليس حاقدا ولا متشائما، بل هو مؤمن بأن من المحال أن يترك هذا العالم قبل أن يتم الرسالة التى يشعر أن أداءها واجب محتوم عليه ، وان كان من العسير على من كان فى الثامنة والعشرين من عمره أن يجد نفسه مكرها على أن يفلسف محنته ، أما بعد هذا فان قلبه يعمره حب للناس ورغبة في الخير ، وهل من عزاء للشقى الا أن يؤدى واجبه رغم الصعاب .. وتاريخ هذه الوثيقة النبيلة هو ٦ أكتوبر ١٨٠٢ ، فى أوج أزمته التى ليس كمثلها فى حياة عبقرى أزمة فهو يرفع رأسه فى كبرياء ليس كمثلها أيضا كبرياء ، ويمشى نحو القدر فى جلال ليبدأ ذلك الاستشهاد الجليل الذى سيستمر خمسا وعشرين سنة ..

« أيها القدر هيىء لى المسرة مرة واحدة ..

متى يا الهى أعرف الهناء وأحسه ..

كلا ، انها لقسوة ! .. » .

كان له أرقى سمع فى العالم ، سمع يلتقط من الطبيعة ومن موسيقى الكون كل رنة أصيلة ، ثم دهمه الصمم الرهيب فى أعز ما يملك ، يريد بقسوة أن يعزله فى أعماق عالم مغلق ، ولكنه يقذف في وجه العاهة الحمقاء بذلك التحدى الرائع ، فيتحرر من اليأس ، ويسمو على ألمه ، ويدخل بفنه عالم الصمم يرووده بلهفة الفنان ، وحاجته الملحة الى استخدام عبقريته واستنفاد امكانياتها .. راح يسمع بصممه ما تقوله الغابة وما يهمس به ضوء القمر وما ينتفض له وجدان البشر وما يتردد من النجوى فى الأرض الغارقة فى عذاباتها ، وصارت رسالته أن ينفث الشجاعة فى كل نفس شقية ، فهو يقول لأصدقائه :

« انى لم تراودنى مطلقا الرغبة فى أن أؤلف من الموسيقى ما ينيلنى المجد أو الحب .. كل ما فى الأمر أن قلبى مفعم ، وكان لابد لما يفعمه أن يخرج ، وانى لهذا السبب وحده أكتب الموسيقى .. » .

كانت ارادته تضرب مثلا نبيلا في الايمان بالانسان ، لأنه من أعماق الشقاء والحزن مجد الرجاء والفرح !

ولقد قهر العاهة وأتم رسالته !

أى معركة خاضها قائد ظافر تعدل تلك المعركة الصامتة التى عاشها وأى غزوة كغزوته !

انسان شقى بفقره وعجزه ووحدته ، رفض العالم أن يمنحه الفرح، فخلق بنفسه فرحا ضخما ووهبه للعالم !

موسيقى كأنها وجه الموسيقى ذاته ، نابعة من انسانية انسان عظيم هو أكثر من بطل ..

هو فنان لأنه هزم عاهته ومنح كل من يفهمه ما يزيد فى غنى نفسه ..
وهو عامل لأنه قضى على نفسه أن ينفق حياته فى حرمان طويل كى يتم رسالته ..

وهو قديس لأنه كرس حياته لكمال مطلق ، ومن وهدة الألم الشقى رفع الجنس البشرى الى أناشيد التفاؤل والفرح ، فى موسيقا رحبة كالبحر ، عميقة كالأزل ..

وفى مثل ذلك الانسان الذى كان وجوده كله — على حـد قوله — « تأملا مستمرا » ، وفى مثل ذلك الخلق الفنى النابع من الهامات النفس واشراقاتها ، تبرز الموسيقا كل تفوقها ، وتأخذ كل حقها ، وتشع بكل معناها .. وانه ليزرى بكل ما يقوى عليه القلم أو تبلغه ريشة المصور أو أزميل النحات ..

ان غاية جهد النحات أو الرسام أن يسجل فى الحيز المحدود لحظة من الحياة ، فاذا حاول اجتياز الحدود التى تحبس فنه ، حطم الفن أو حطم نفسه .. وقد قورن بيتهوفن مصور لا جدال فى عبقريته ، وأن ميكيل انجلو لفنان عظيم ، ولكننا نرى فى آثاره الفلورنسية ما يلقاه الفنان حين يصنع الفن ليمجد أشخاصا من أهل الفناء اذ يعانى ضرورة تصوير فكرته الرفيعة عن البطولة في نطاق مفروض عليه من ذوى السلطان، ونحس اذ نتأمل تلك الآثار أن انشاءها على روعته لم يستنفد كل طاقة الخالق المبدعة ، أما الموسيقى فهى سيدة المكان والزمان معا .. واذا كان التعبير الموسيقى بطبيعته ليس له ما للعبارة الأدبية من وضوح قاطع يبلغ الذهن من خلال قوالب الحروف والكلمات ، فان بيتهوفن اذ يتكلم بلغته العلوية يملك ذلك الوضوح النقى الخالص ، ويتجاوز بالنغم

تصوير الفرح والألم الى تصوير المراحل النفسية الغامضة فى الانتقال من احدى هاتين الحالتين الشعوريتين الرئيسيتين الى الأخرى ، والى تسجيل الأحداث النفسية الدقيقة التى تمر بها تأملاتنا العميقة الحميمة .. وهذه الحقائق النفسية والألوان العاطفية التى تجمد فى الأسر عندما تتحدد فى قوالب الكلمات أو ألوان اللوحة أو عروق المرمر ، تأخذ فى موسيقا بتهوفن كامل حريتها وتبلغ كمالها المطلق الذى لا يجازى ، ويختفى تماما ذلك التشويه المحتوم الذى تتعرض له هذه الأحاسيس الأزلية عند ترجمتها الى كلمات أو خطوط ، اذ يتجلى العقل الكامن فى صورته المتحررة ويعبر عن نفسه فى قوة وصراحة تستخرج أعماق النفس وتجـــلوها ....

- ٤ -

كتب الذين ألفوا قبل بتهوفن سمفونيات لا عدد لها .. كتب هايدن مئة سمفونية وكتب موزار أحدى وأربعين سمفونية ، وكتب الكثيرون غيرهما مئات السمفونيات ، أما هو فان لدينا منه تسعا ، والتاسعة مما كتب ، هي وحدها خلود ساطع تنزل من حقيقةالكونالعليا هدية لأهل الأرض يعز مثالها ، ولقد أثارت فى نفوس من سمعوها في كونسرت ٧ مايو المشهور عاصفة روحية ، وستعيش الى آخر الزمان شابة كالمنهل الروحى الذى لا يغيض فيضه ، قريبة من الوحى ، حارة كالدم .. .أما السمفونية الثانية من تلك السمفونيات التسع فهى زهرة مكتملة التفتح عنيفة التعبير عنفا لاذ منه بالفرار أحد الذين استمعوا اليها أول مرة ، وهو الموسيقى الفرنسى « كروتزر » ، كأنما انطلق فى وجهه من الغيب مارد رهيب تضاءلت أمامه نفسه وأوشك أن تخرج روحه من جلده ... وعندما أقبل الشتاء من سنة ١٨٠٣ والربيع من سنة ١٨٠٤ كان بتهوفن — وقد اتخذ من بونابرت أنموذجا قد صاغ « الارويكا » سمفونيته الثالثة .... ولكن أى بونابرت نراه فى ذلك النغم !.. انه الجندى الذى كان يوما ما فى نظر الموسيقى صوت الحق الذى يشن الحرب ليحتفل بعظمة السلام ، لا الرجل الذى خاب فيه الرجاء عندما وضع التاج على رأسه وتنكر للجمهوريين والمتحررين الذين كانوا حتى الأمس اخوته ، وقال أنا ربكم الأعلى !.... ان بونابرت الذى يسيطر على السمفونية الثالثة هو شخص مثالى من صنع بتهوفن المؤمن بالحرية والجمهورية وحق الانسان فى حياة كريمة وجميلة وطيبة !

لقد تحول بونابرت من رجل الحرية الى رجل السلطة ، فشطب اسمه من الاهداء المكتوب على نص السمفونية بخطه ، وأخذ فنه يزمجر

فى وجه الجراد الفرنسى الذى تقدم فاحتل فيينا قلعة الأنغام ليحرس منها الطرق التى يهددها خصوم الامبراطور سيد أوربا ... وفى ٢٠ نوفمبر ١٨٠٥ ، بعد أيام سبعة من دخول القائد الفرنسى « مورا » العاصمة النمسوية ، وقبل معركة استرلتز التى صرع فيها بونابرت فرنسوا الثانى والقيصر الكسندر معا ، باثنى عشر يوما ، عرضت أوبرا « فيدليو » التى كتبها بتهوفن والعواصف السياسية تجتاح أوربا ... وهذه الدراسة الشعرية التى لم يعثر على غير بضع صفحات من نسختها الخطية هى عندنا ترجمان صادق عن رغبة الفنان فى الاتحاد العام بالمصير البشرى مترجمة الى رغبة في الاتحاد الروحى بامرأة ... وقد قاد بتهوفن الأوركسترا بنفسه فى ليلة العرض الأولى ، أمام قاعة نصف خالية ، وكان معظم الحضور من الضباط الفرنسيين والغوانى .... ولم تلق « فيدليو » النجاح الذى هى جديرة به ، فان عرضها لم يقع فى ظروف ملائمة ، فقد كان بونابرت ، منقضا فى سلسلة من الوثبات ، قد بلغ عاصمة النمسا الجميلة ، وكان أهلها حريصين على أن لا يمسها من الحرب سوء ، فخرجوا فى زينتهم يتفرجون على جنود فرنسا هؤلاء الذين جاءوا ليحتلوا وطنهم ويسألونهم فى لهفة متى يقبل صاحب الجلالة الامبراطورية ...ومال الكبراء أول الناس بقلوبهم الى الغازى ، ولعنوا حكومة وطنهم التى قاومته ... كما أن الجمهور الكبير الذى استمع الى الاوبرا لم يفهم لغة رجل يحلم بسعادة الاتحاد الروحى .. حتى نقاد فيينا الأعلام قالوا فى جهالتهم ان كورس الأسرى البديع عمل فاشل ، وهو المشهد الموسيقى الرائع الذى يظهر فيه الأسرى واحدا بعد واحد فى مطلع الفجر ، بعد أن يسبقهم لحن هادىء ، وكلهم في أسمال وقد طالت لحاهم ، ثم جعلوا يمجدون فرحة الانعتاق وجمال السماء ونعمة الحرية والثورة على المحبس المظلم والأمل فى السلام والحرية .. هذه العبادة للحياة وهذا الايمان بالسلام قد عز على الكثيرين من معاصرى بتهوفن أن يتفهموهما أو تخفق بهما قلوبهم !

وهذا بونابرت يدخل فيينا !

واذا بالمادة قريبة كل القرب من الروح !

الفنان الذى ملئت نفسه حبا للانسانية والجزار الذى قتل فى يوم واحد من الأيام ، فى استرلتز ، بغير اكتراث ، ولينال نصرا لا فائدة منه للانسانية على الاطلاق ، عشرين الف حياة آدمية !

وفيينا فى عام أسترلتز خليـــة تحتضن من كل جنس ، نمسويين وفرنسيين وبولنديين وأتراك وهنغاريين وقوزاق ، من الغـــرب ومن الشرق ، والمدينة بهم مرحة لاهية ترفع علم اللذة والاستمتاع ، وتموج فى ظل الحكم العرفى بالنساء الجميلات المغامرات و « البيوت الخاصة » المترفة .. وفيها « مرض » منتشر تلصق كل امـــة هنالك جريرته بالأخرى ! .. والموسيقى ـ رخيصة أو قيمة ـ ترسل انغامها فى كل ركن ، فهى هوى هذا الشعب ، حرا ومستعبدا ... وفى كل ركن ايضا مطعم « براسيرى » ، فالممثل الفيينوزى يقول : « يحيا الحب ، بشرط أن أتعشى !! » ..

وفى ٢٩ مارس ١٨٠٦ عرضت « فيدليو » فى صورتها المعدلة الجديدة، فقد أذعن الفنان لنزعة الناس ورضى أن يقتطع من عمله ويعدل فيه ... وما أصعب هذا .. كان ذلك فى قصر الأمير لشنوفسكى ، فى ديسمبر من السنة السابقة ، وكانت الأميرة الشيخة ، وهى عليلة انيسة ، اقد اتخذت مجلسها فى قاعة الموسيقى أمام البيانو ، والى جانبها جلس بتهوفن ممسكا فوق ركبتيه بأصول الأوبرا التى لم تعجب الناس ، رزمة ثقيلة .. وكان هناك ممثلو الرواية وصفوة من المجتمع وأهل الفن ، وكان بتهوفن حتى تلك اللحظة يأبى أن يدخل أدنى تعديل على النص أو يحذف تلك المشاهد الزائدة الطول فى الفصلين الأول والثانى ، ويريد أن يهرب من القصر فرارا من كل ذلك الالحاح ، والأميرة تذكره بأمه وتتوسل اليه باسمها ، فما أن يسمع ذكر امه حتى يقف صامتا رافعا هامته بكل عظمتها الأوليمبية ، ثم يرفع بيده الخصل الطويلة من شعره التى كانت قد سـقطت على جبينه ويبكى وعيناه مرفوعتان للسماء وهو يقول لصديقته الشيخة الأميرة :

ـ انى افعل كل شيء يا سيدتى ارضاء لك ، ولأمى !

وكانت المقاصير في ليلة العرض الجديدة شبه خالية ، لأن « الجمهور» كان يتزاحم فى المسارح الأخـــرى كعادته على الأوبرات الخفيفة .. وقد تبين بتهوفن بنفسه الأسباب العميقة لهذه الخيبة الجديدة :

« ان هذا الجمهور لم يفهم فيدليو .. والسمفونية هى ميـدانى ، فالأوركسترا الكبيرة هى صوت نفسى الذى اسمعه فى داخلى .. »

وقد بلغنا من حياته مرحلة تسجل فى عمله الفنى تحطيمه لكل قاعدة وقضاؤه على كل أثر للصنعة ، فى عنفوان عامه السادس والثلاثين ..

لقد استسلم بغير تحفظ لشيطانه الداخلى ، فصارت موسيقاه « بلاغة الموسيقا » ... فى الرباعية الثامنة مثلا نسمع فنرى شاعرا يتأمل السماء ويستوحى هارمونية الكواكب ، فهل ثمل بالوعى الكونى تحت النجوم ، وهو فى عروق الوجود يسبح ... وهو يترنم بنشوته مرسلا على سجيته روحه الذى يتدفق فى وحدته ، أنات وسكنات ، وقلق وطمأنينة ، يدور بها كلها في دوائر نغم يدور فى استقرار بطىء له رقة السحب الثقال تسرى فى صفاء السموات ... نفس تحدثك صارخة شاكية ومصلية .. وهى بعد ذلك موسيقى ذكية تعرف كيف تصمت فتترك لك أنت يا من تسمعها مسافات عجيبة معبرة كى تملأها أنت حسب أصداء رغباتك المتغيرة ...

ان بتهوفن الآن قلب يغني فى كل قلب !

يغنى فى كل قلب وهو مريض وفقير ولا يجد للفن شرفا فوق هذا الشرف ، صار له كل ذلك الجلال فى فنه ولكنه ظل فقيرا وهو يصور البطولة سمة من سمات الروح الانسانى ويجعل فرح الناس وحزنهم لغة على بساط النغم ويخاطب كل عصر وكل جماعة وكل الرجال وكل الأزمنة !

وانه ليبلغ من بؤسه أن يوجه الى « الادارة المحترمة للمسارح الامبراطورية والملكية للبلاط » طلبا فيه مسكنة للحصول على وظيفة ثابتة !... اقرأ قوله : « لقد كان دليلى الهادى دائما فى حياتى الفنية لاكسب القوت بل مصلحة الفن والمثل الأعلى » ، وقوله : انه يطلب فقط أن يتاح له الاستقرار فى عاصمة الفن ولا يجبر تحت ضغط الحاجة على الاغتراب عن وطنه .. وهو يعرض : أن يلحن أوبرا كبيرة على الأقل فى السنة ، فى موضوع يتفق عليه مع « الادارة المحترمة » ، بمرتب سنوى ثابت قدره ٢٤٠٠ فلوران ، على أن يكون له دخل العرض الثالث من كل أوبرا .. وهو يتعهد فوق ذلك بأن يقدم كل سنة « أوبريت صغيرة ، أو ملهاة ، وألحانا للكورس ، ومعزوفات للمناسبات ، طبقا لرغبات وحاجات الادارة المحترمة » !

وفى نهاية طلب الاستخدام يأمل أن يؤذن له باقامة حفلة كونسرت لحسابه مرة فى السنة !

ومن حسن الحظ أن « الادارة المحترمة » لم ترد على ذلك الطلب الذى دفعت صاحبه اليه حاجته الى تأمين مورد ثابت لعيشه ، فان الفن ليسره أن يكون التجار المحترمون المشرفون على المسارح « الامبراطورية والملكية » قد ألهموا القسوة فلم يجعلوا من الأستاذ العظيم موردا للاوبريت الخفيفة المسلية وقطع المناسبات !

وعلى الفقر والصمم ندخل عليه صومعته فى أحد أيام سنة ١٨٠٩ فنجد أكمل صورة للانسان فى قوة نضجه وسطوع موهبته ، نجد السمفونية الرابعة التى قال عنها « برليوز » انها مليئة بالجنون والسكينة السماوية ، والتى يدعوها عشاقها « الأنشوذة الغرامية » .. انها تقف بين السمفونيتين الثالثة والخامسة كالبنت الرقيقة بين عملاقين من الرجال !

وفى السمفونية الخامسة يصارع الانسان القدر ويتجلى اخاء الانسان ويتضوع العطر من المشاعر السامية ٠٠ استمع فى افتتاحيتها الى الضربات الثلاث القصيرة المتلاحقة ، تتلوها الضربة الرابعة الطويلة .. يقول لك بتهوفن : هكذا يدق القدر على الأبواب !

وتتوالى التحف ، السادسة ، والريفية « الباستورال » التى لا تقدم لنا « لوحة موسيقية » للريف طبقا للطرائق الكلاسيكية ، بل هى خريدة من الشعر المصفى تحكى همس الروح وتحيى الأحاسيس والأفراح التى تملأ نفوس العاملين في الحقول اذا اجتمعوا بعد انقشاع عاصفة عابرة ، فى سذاجة موصولة بروح الكون ، وعلى ايقاع حفل للرقص فى الريف ، وعصير من شفتى بنت جميلة من بنات الحقول ، والمشهد فيما تحدثك الترنيمة يدور على ضفة غدير بين خرير الماء ونداء البلبل يتردد كالرجاء السرمدى ، والأشجار ترتعد بالحب الكونى السارى فى الوجود .. تحية صوفية من عامل الى عاملين .. نفير يرجف الغابة .. سكون .. مزامير تمزق السكون .. لكنك لن تسمع انسيا فى فرح الكون بربيعه الا بعد أن يكون قد تم كل هذا التفتح العام للحياة واهتزت له الطبيعة ملء وجودها .. عند ذلك تسمع رقصة الفلاح مهتزة نفسه بهذا السيال الكونى من الفرح ، وفرح الأرض اذ تصحو وتنتعش ٠٠ وهو لا يرقص كما يرقص أصحاب الأوبرا كوميك الفرنسية ، بل رقص الفطرة الذى يفعم نفس الراقص بدوار من تمول عنيف .. فاذا مرت العاصفة ببرقها ورعدها ومطرها تغنى الانسان بنعمة السكينة ويبشر نشيده بالخير !

موسيقاه تغنى فى القلوب وهو فقير فى ذلك المجتمع التافه المنمق الذى لا يزال يأبى أن يعترف بذلك « الثائر الهرطقى الجمهورى » !

وهو يفكر في الرحيل الى اية بقعة فى أوربا ترتفع فيها قيمة الفن ، وتجد فيها صيحة الفنان من يصغون اليها ، سامعين وفاهمين ..

أما هنا فاعراض غبى حتى من الموسيقيين الذين ينكمشون كالجرذان الوجلة عندما يسألهم أن يعزفوا بعض مؤلفاته .. وانه ليضحك فى نفسه ساخرا من هذا الوضع ، فهو الذى أراد منذ صباه أن يقف فنه على خير الفقراء ، لا يجد من يفهم فنه فى الحقيقة غير أصحاب الذوق المصفى والوعى الموسيقى المرهف ، وهم فى كل عصر قلة !

فقير ووحيد فى مسكن صغير من حجرتين عليهما طابع القذارة والفوضى ، وبقايا الطعام والملابس ملقاة على المقاعد الخشبية ، والرأس الأوليمبى الجليل هناك يكلم ضيوفه فى الفن والفلسفة والدين والسياسة والأدب والحياة ، والمدينة في الخارج تضج بمرحها واستهتارها .. المجتمع العالى — صفوة المنحلين — يرقص عند الحاكم الفرنسى ، والنبلاء يتنافسون في التزلف الى السلطات الفرنسية والفوز برضاها ، والنساء ميسورات ، ما أسهل أن تقتنص الواحدة منهن ، أو تسعى هى اليك قانصة ، و « الحب » فى كل مكان بمعناه الجنسى ، والجو مشحون بموسيقا من كل لون .. لكن اللون الرخيص عليها غالب .. مجتمع مريض أعمى لم يشأ أن يشعر بأن وطنه لم يعد له وجود ، ولا هزه أن خمسمائة الف رجل قد ظلوا فى معركة واجرام يتقاتلون خلال خمسين ساعة متتالية ، لا لشىء الا ليصير نابليون بونابرت امبراطور امبراطورية لا تقل عن امبراطورية شرلمان !

عزله عن الناس صممه ، فعسكر أمام القدر العـدو فى موقف المتحدى ، بروحه المتعالى على الألم ، وصفى كل عاطفة وكل فكرة وكل ارادة تمر بنفسه المستوحدة الى شعر خالص !

وكانت حياته العاطفية لا تزال مفجعة ، وروحه الظامئة تهتز برغبة أصيلة فى الاتحاد مع امرأة جديرة به ، سيظل يبحث عنها طويلا ولن يلقاها أبدا ..

وفى سنة ١٨١٠ كانت « الحبيبة » التى يهدى اليها بعض اعماله الجديدة هى « بتينا برنتانو » ابنة احد كبار التجار في فرانكفورت ، وهى وأبوها وأسرتها بعض أبطال قصة « جوته » المشهورة « آلام ڤرتر » فهى اذن أسرة تحتل مكانا هاما فى تاريخ الفكر الألمانى ، والكثير من رجالها ونسائها كتاب وشعراء ، وهى نفسها ستغدو صاحبة أعمال أدبية تملأ عشرة مجلدات .. وقد أطمعته فى حبها وكتبت الى « جوته » صديق أسرتها تقص عليه نزهاتها مع بتهوفن وكيف « تنسى بالقرب منه كل أولئك الذين عرفتهم ، حتى أنت ياجوته ! » .

ثم جاء ابريل من سنة ١٨١١ فاذا هى مسافرة مع عريسها الكاتب الرومانسى الألمانى أكيم دارنيم الى برلين !

والحق أنها كانت هستيرية شاذة ، وستظل طوال حياتها تطارد أقطاب الفكر والفن بصداقتها ورسائلها ومذكراتها ، ولقد نجا بتهوفن يوم هجرته من خطر محقق !

وهذه القصة الحزينة ، الفشل المتواصل فى الحب ، تتكرر أكثر من مرة وتنتزع منه فى النهاية هذه الصرخة : « فى عالم الأفكار وحده أجد الحب ! » .

وفى « الثلاثية السابعة » للبيانو والكمان والفيولونسيل جمال كان بتهوفن نفسه شديد الاعتزاز به ، حتى لقد جعل قبيل وفاته بأيام قليلة يتحدث عنها على سرير مرضه مع صديقه الحميم شندلر ، فى مناقشة مؤثرة أراد بها أن يحـدد للأجيال القادمة معنى ذلك الجدول النغمى المتدفق الذى يفيض فى موجات صوتية ، بعضها مسرع رشيق لا يعرف الأناة كانسياب جدول الماء في مجراه ، ثم ينتشر الفيض فى بركة رقراقة واسعة ، ثم يعود الى مجراه ويحيا حياته الكاملة ، قبل أن يصب فى « الختام » بعد أن يكون قد روى لنا قصة حياته الجميلة .. ان الحياة والفكر لم يمتزجا قط بمثل هذا الاتحاد الوثيق المؤثر ، ولقد قال بتهوفن لشندلر فى ذلك اليوم : « ان الفقرة الأولى تصور الهناء والحبور والعناد ، أليس كذلك ؟ .. وفى الجزء الثانى وصل البطل الى ذروة الهناء .. وفى الثالث يتحول الهناء الى انفعال الرضى وسكينته الأخيرة .. اننى أعتبر هذا العمل المثل الأكمل للقداسة وللطوبى .. ان الكلمات فى هذا الملأ تقر بعجزها المطلق ، فالموسيقا وحدها هى التى يسعها أن تعبر عن كلمة الله .. » .

والسيمفونية السابعة التى أتمها فى ربيع سـنة ١٨١٢ هى شيء كمزاجه النفسي فى تلك الفترة يتحول من المرح العاصف الى الشكوى الموجعة ، وقد أسماها « ڤاجنر » في اعجابه بها « الهة الرقص » وقال ان بتهوفن « قذف بنفسه الى المحيط الذى لا حدود له ، على سـفينة عملاقة ، فى رحلة عاصفة ، وهدفه أن يكتشف الأرض التى يشعر أنها قائمة وراء تلك الصحراء السائلة المهيبة .. » .

وهو على حق ، لأن فى سمفونية بتهوفن السابعة رحـابة وتوثبا وتحديا يصور قوة الحياة ، بعكس السيمفونية الثامنة التى جاءت أقل عمقا ، وهى تحدث من يسمعها فى بعض حركاتها بأنها كتبت على عجل وفى ضائقة ووسط رحلات وهموم ، ولم يكن خالقها نفسه يضعها فى مصاف سمفونياته السبع السابقة ..

وقد دار ميزان الأيام وتقلص عن الدنيا ظل بونابرت ودخل الحلفاء باريس تحت الوية النصر وتنفست أوربا فى ارتياح حاسبة أنها فازت بالخلاص وتحررت من الشر الكبير .. لقد انهار بطـل « الارويكا » البطولية ، وسقط عنه وشاح المجد بعد أن خان رسالته .. وذهب الى عدم الطغاة وبقيت السمفونية نفسها لتملأ نفوس الناس فى كل زمان

ايمانا بحق الشعوب في الحرية والسلام والرغد ، فان فيها ما لم يكن فى نابليون نفسه من عزة الحق ومجد الرجولة وكفاح الروح وانتصارها . . وكان هناك فنان عبقرى آخر من المتحررين مست عقله ووجدانه هزيمة نابليون ، وهو لذلك أهل لأن نذكره فى معبد بتهوفن ، وهو فرنسسكو دى جويا الذى عاش أيضا فى سجن الصمم وكان أيضـــا عدوا لكل المعتقدات الأسطورية وفنانا انسانيا ملتهب الاحساس بالبؤس الشعبى وشديد الوفاء لأصله الريفي المتواضع ، فهو يحتضن بحماسة كل فكرة ثورية ويخيل اليه ــ فى مبدأ الأمر ، كما خيل لبتهوفن ــ أنه يستطيع أن يضع فى نابليون بونابرت ثقته لتحقيق الأهداف التحررية الواجبة لانقاذ العالم من محنته . . وقد رأى « جويا » من المظالم ما لم يره بتهوفن وشهد بعينيه عصف الأقوياء بالمستضعفين فملئت نفسه مقتا للعنف والطغيان والتفرقة بين الناس ، ولوحاته فى متحف مدريد ترتعد بالبغضاء لفظائع القوة الغاشمة ، ووسيلته الى الاحتجاج على فظائع الاحتلال التى تحيق بالشعب هى أن يصور نكبات الحرب فى مجموعة قوية من اللوحات الثائرة . . انه هو الآخر رسول ينشر بالمحبة والسلام، فهو يصور المذابح وأعمال النهب والاغتصاب وظلمة السجن وبشاعة الاعدام الجماعى وفظاعة التعذيب وعفن الجثث على الأرض المعذبة ، ولم يتنفس الرجاء مرة أخرى فى قلبه الا عندما هزم النسر الامبراطورى آكل اللحم البشرى ، فخرجت للناس لوحته الفذة « هذا هو الحق » التى تصور امرأة عارية الصدر مزهوة الرأس تحت سماء مشرقة وقد وضعت احدى يديها على كتف رجل سحقه العمل وحطمه العذاب ، فتجلى للشيخ التعس من تلك الرحمة أفق يشع بنور المستقبل ، وعلى الأرض سلال مليئة بالفاكهة وحزم محصودة ، وتحت ثوب المرأة الشابة حمل برىء ، رمز السلام . .

ان الفكرة التى أوحت بتلك اللوحة هى نفسها التى تنزلت على بتهوفن بوحى السيمفونية التاسعة !

فالفن واحد ، كالانسان :

- ٧ -

لندخل بيت الرجل الذى حرر الموسيقى وأطلقها من سجنها ونفخ فيها من روحه ، لندخل ذلك المسكن المتواضع الذى تضطرب بين جدرانه المتقاربة وأثاثه المهوش حيـاة الرجل ، هو ذا الانسان بقامته المتوسطة وقسماته الواضحةوبنيته الصلبة وغضباته العنيفة التى تثير فوق جبينه الواسع خصل شعره الثائرة وعينيه الرماديتين المائلتين الى الزرقة ، تعكسان من أعماق نفسه طيبة القداسة . انه غاضب ، ثائر على الدنيا ، على خادمته .. على «شندلر» الصديق الوفى الذى يجعل من شخصه هدفا لثورات الأستاذ ، لتهدأ النفس الثائرة للابداع .. وقد تكون ثورته العاصفة على أحد مديرى المسارح ، أو على أحد الناشرين الذين يدعوهم « جزارى المدينة » ! .. وهو يعلن أنه يكره الموسيقى الايطالية ، وحكومة النمسا ، والمساكن التى تستقبل الشمال وريحه الباردة ! .. « لست أفهم كيف تسمح الحكومة بوجود مدفأة فظيعة وتالفة الى هـــذا الحد ! » .. أو : « ان جزارى المدينة الناشرين لصوص ! هــــذه سرقة ! .. » .. وتبلغ نوبة الغضب أقصى مداها فتتلوها ســكينة وصمت طويل .. لكن خادمته الصابرة الفت ، اذا دخلت عليه ومعه ضيف دون أن يكون قد دعاها ، أن تتلقى صحفة الطعام فى وجهها ! .. هو ذا الانسان على حقيقته فى ضعفه .. وهو فى بعض شطحات غضبه يظل يعنف بها حتى ينصحه صديق له — فى بعض كراسات المحادثة — « أن لا يضربها بكل هـــذا العنف حتى لا يقوده ذلك الى متاعب مع البوليس .. » .

وقد يؤثر أن يخلو له البيت ويعد وجباته بنفسه ، فهو يقذف الى الحائط بكل بيضة يحكم عليها من مظهرها بانها ليست طازجة ، وحول خصره المريلة الزرقاء ، وصنع يديه طعام عجيب من ابتكاره لا يخاطر

أحد من ضيوفه فيمد اليه يده ! .. واذا بدا لأحد الزوار أن يجلس فان عليه أن يرفع السمك المقدد والجبن عن مســـودات الرباعيات والسيمفونيات .. وأينما أدار الزائر بصره وجد القناني مليئة ونصف مليئة ، من نبيذ النمسا الثقيل الأحمر ، فان الرجل مدمن الى حـــد الافراط ، وابن أبيه ..

بيت رأى « روسيني » حالته المؤسفة فامتلأت نفسه غما ، وانسان اذا خرج من بيته ذهب وحيدا يتلمس أركان الغابة ، وحول عنقه شملته البيضاء ، ولكن القميص من تحتها مفتوح ، وهو فى ثوب أزرق تلمع أزراره المعدنية الكبيرة .. فاذا بدا له أن يدخل حانة من تلك الأقبية الفينوازية ذهب الى الركن فاحتل مائدة منعزلة وأشعل غليونه الطويل وطلب الصحف والرنجة والبيرة .. وقد ينفض المكان بنظرة فلا يعجبه الرجل الذى وضعته المصادفة على المائدة القريبة ، فينهض مزمجرا ليلتمس ركنا قصيا .. ولكن الريف « حديقة الله » كان خير معابده ،

حيث لا يلقاه من يكشف قلقه ولا يتلفت الناس اذا رأوه يمشى محدثا نفسه بلسانه ويده .. انهم فى شوارع المدينة يقفون ليتأملوه عابرا في سبيله ، وان الصغار ليتعقبونه ويركبونه بسخريتهم حتى ليرفض ابن عمه كارل أن يخرج معه الى طريق ! .. لكنه هو لا يعبأ بغير التأكد من أن جيوبه محشوة بكراسة للموسيقى وكراسة المحادثة وقلم الرصاص الهائل ، وعلى الدنيا السلام ! ..

وفى المجتمع تتبدى بداوته ونقائصه .. فى لحظة غضب أوشك أن يحطم كرسيا على رأس صاحب السمو الأمير ليشنوفسكي ، ثم لانت نفسه فانفجر ضاحكا .. وهو يحب النكتة الغليظة والدعابة الخشنة.. طلب منه تلميذه وصديقه الأرشيدوق رودلف أن يمده بجوقة موسيقية لملعب خيل يقيمه ، فكتب اليه : « الموسيقى الحصانية المطلوبة ستصل راكضة الى سموك الامبراطورى ! » .. وقد وصفه « جوته » بأنه « انسان غير مروض » وقالت عنه مجدلينا ويلمان التى عرفته فى شبابه انه « نصف مجنون » .. وقد تساءل البعض ان كان قد عانى مع الصمم وضعف الشهية (الذى كان سببا فى ادمانه الخمر التى فتكت بكبده) ، ذلك « المرض » الآخر الذى كان منتشرا فى ڤيينا فى عصره وكان علاجه يومذاك اقل سهولة منه فى زماننا هذا ! .. أما صممه فقد قال عنه الدكتور « ماراج » الأخصائى الذى فحصه انه كان فريدا في نوعه :

فهو يعزله عزلا تاما عن العالم الخارجى ، ولكنه يحتفظ له بمراكزه السمعية فى حالة ثابتة من التهيج ، فهى تحدث ذبذبات خارقة ذات طنين يستقبلها هو مجسمة عذراء .. لكن نفسه على كل هذا البؤس فى حياته وفى صحته منورة مشعشعة ، ونجد فى احـــدى كراسات محادثاته (السادسة) هذه العبارة الجميلة :

« متى ملئت انفسنا بالخير تلألأت فوق رءوسنا نجوم السماء .. »
وهو مؤمن بنفسه ، وايمانه تواضع جميل للفن الذى أخلص له حياته :

« ان الفنان الحق ليس له كبرياء ، فالفن لا حدود له ، والفنـــان الحق يحس دائما كم هو بعيد عن الهدف ، عن الشمس التى تلتمع هناك بعيدا .. » .

وهو عابد للموسيقا ، ومتصوف وروحانى :

«الاحساس بداية العقل ونهايته ، والموسيقا أول الكلام ومنتهاه ..»

انها نفس فنان كامل وان بدت لك منها قشرتها الصلبة وجهامتها النافرة ، تتطلع من محبسها الى السماء تنشد كمالها ، وتتطلع من قمتها الى الانسانية ناطقة بحبها ..

وقد هضم هومير وبلوتارك ودانتى وشكسبير وجوته الذى كان بلا ريب أحد منابع الوحى البتهوفنى ، كما كان شيلر وحيه فى قصيدته « الى الفرح » ، وهى الغنائية التى أنهى بها سيمفونيته التاسعة فكانت تمجيدا لقوة الحياة التى تنبت البذور فى السماء الشموس وتقود الأبطال وتسند الشهداء ، وكانت دعوة للناس أن يكفوا عن الأنين ويتغنوا باللحن السعيد ، فما أسعد من وسعه أن يكسب صديقا ، وبالسلام يصـــير البشر أحبة .. وكانت تلك هى دعوته وهو يخوض أياما مثقلة بالمتاعب المالية والمنازعات القضائية والخلافات مع الناشرين .. وكان قد احتضن ابن أخ له مات فصار الولد عذابا لحياة عمه وصار بتهوفن ضحية حية كريمة فى سبيل تنشئة الولد العاق الفاسد وصار الصراع مع البؤس أو ما هو أدنى الى البؤس حكاية كل يوم ! ..

وكان « روسينى » قد صعد على الأفق الايطالى نجما جديدا ظافرا في « حلاق اشبيلية » و « عطيل » وذاعت الأوبرا الايطالية وسرى الطابع الروسينى ، وقد زار « روسينى » بتهوفن وعبر بكل حرارته الايطالية

عن تقديره لذلك الخالق الفذ ، لكنه لم يره وهو يشترى طعــامه من الأسواق ويعد وجبته بيديه ، أو وهو يحجم عن الخروج الى السوق فى بعض الأيام حياء من حذاء برزت خروقه !

وجاء مساء يوم ٧ مايو ١٨٢٤ فكان الكونسرت المشهور الذى سمع فيه الناس لأول مرة « القداس » و « السيمفونية التاســـعة » : أما « القداس » فما هو بتراتيل قساوسة بل صلاة بلا كلمات ، وأما « التاسعة » فهى درة بتهوفن وكلمته الأخـــيرة الى الانسانية ، وان بتهوفن بشر عاش ومات ، أما « التاسعة » فانها ستظل فى وعى البشر حتى تدخل معهم رحاب المصير المشرق للانسان فى الأرض .. وقد مات بعد أن هده داء الكبد والاستسقاء واحتبس صوته ، ولما كتب له طبيبه فى ١٨ مارس ١٨٢٧ سطورا قليلة يعلن اليه فيها أن نهايته قد دنت ، قال لأصدقائه الذين كانوا حوله :

« صفقوا يا رفاق ، فقد انتهت المهزلة ! » .

وعند الغروب من يوم ٢٦ مارس ١٨٢٧ مات لدفيج ڤان بتهوفن وعاصفة من الثلج تهبط من السماء على المدينة ، ومشت ڤيينا فى جنازة شعبية ، وفى الجو عبق من كهرباء موسيقية وتسابيح ..

وكانت تركته بعض الأثاث القديم ، وملكا عريضا لا يبلى !

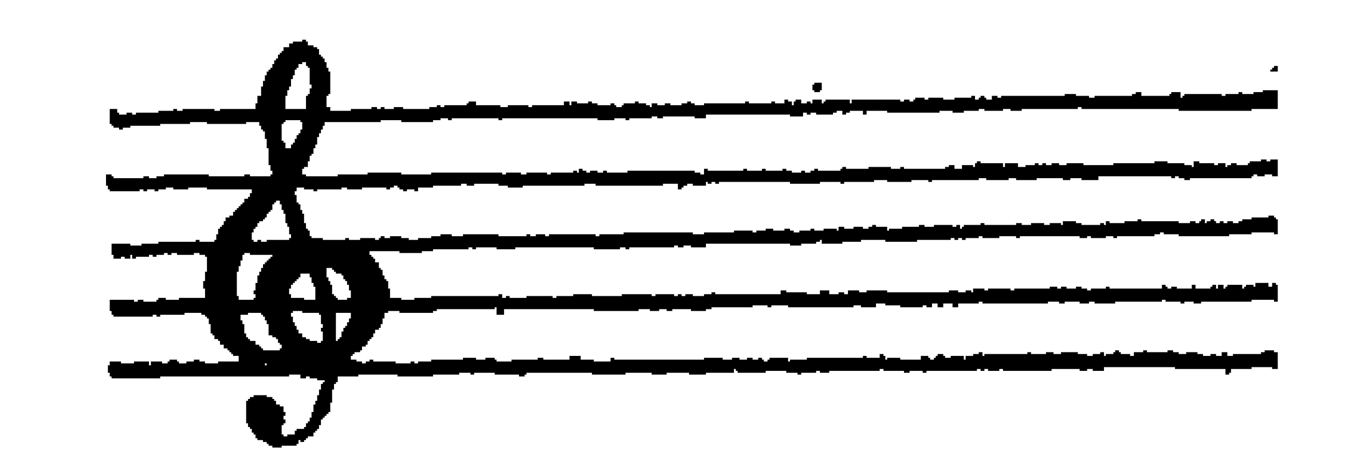
آخر سكان الأبراج



« ان الفنان الحق ليس له كبرياء ، فالفن لا حدود له ، والفنان الحق يحس دائما كم هو بعيد عن الهدف ، عن الشمس التى تلتمع هناك بعيدا .... »

(بتهوفن)

الاحساس اول العقل ونهايته ،
والموسيقى اول الكلام ومنتهاه ..



ـ ١ ـ هكذا تعلمنى الموسيقى دائما كلما عدت اليها ظامىء الوجدان الى توازن القلب وسكينة النفس ، وبهذا علمنى بتهوفن منذ هفت الى نبعه الفياض مطالع شبابى ..

قضيت ليلى كله مع قطاعات من عالم « برليوز » الموسيقى الذى يفتح باب تيار من الأفكار والأحلام ، ومع روايات « موزار » الغنائية « الناى المسحور » و « دون جيوفانى » و « زواج فيجارو » .. لكأن « موزار » أوتى سر الموسيقى فى المهد ! .. قرأ اللغة الموسيقية وكتبها قبل أن يقرأ حروف الهجاء ويكتبها ، وخرج على الدنيا خروج المعجزة ، يحمل موهبة طبيعية لا تعليل لها ، ويؤلف منذ طفولته الأولى الحانا رشيقة محكمة .. عاش حياته القصيرة يزداد كل يوم توهجا ، واخترق كالشهاب سماء النغم ، ثم مضى في الخامسة والثلاثين مخلفا وراءه عالما من الصفاء الرقيق وروح الاستبشار والحب .. وأسرته كلها كانت « حبيبة الموسيقى » : كان أبوه عضوا فى فرقة بلاط سالسبورج الموسيقية وأستاذا للعزف على الكمان ، كما كانت أخته عازفة مجيدة منذ طفولتها ، أما هو فقد تجلت موهبته الخارقة منذ كان فى عامه الثالث ، ذاكرة موسيقية ساطعة القوة، وأذن تلتقط همسات الكون من أعماق السكون وتجلوها ببساطة مذهلة ، وهو فى عامه الرابع يؤلف كونسرت البيانو ، وهو يعزف على الأرغن والكلافسان والفيولينه ، وأهل ميونيخ كادوا يفقدون عقولهم وهم يستمعون الى « الطفل العجيب » ، وبعضهم تشنج وهو يبكى ..

هذه الأسرة العجيبة المباركة التى « تحبها السماء » ركبت ذات يوم فى سفينة نهرية قاصدة « ڤيينا » كعبة الموسيقى ، فلما توقفت السفينة فى الطريق عند مدينة صغيرة من مدن الدانوب غادرها المسافرون الى كنيسة المدينة ، وبينما فرغوا بقلوبهم للصلاة مضى الطفل وحده فى هدوء الى مكان الأرغن ، مسحورا بهذه الآلة المعقدة التى لم تلبث أن ارتفعت

منها أنغام جليلة صاعدة الى القبة ، فهفت القلوب الى مصدر الصوت وصعد بعض الناس الى مكان الأرغن ليجد الطفل وراءه لا يكاد يبين ، وأنامله تجرى على المفاتيح بنغم خاشع أبدعته لساعتها هـــذه الروح الموسيقية العذبة الطفلة .. وفى « ڤيينا » طلبت القيصرة أن تقـــابل « الطفل الالهى » وتسمعه فدخل عليها مع أخته وأبيه قاعة عرشـــها وحولها أولادها الأمراء والأميرات ورجال البلاط ، وقربت اليها ذلك الطفل الذى لا يستمد عظمته من حق الهى مزعوم فقبلها ، فأجلسته فوق ركبتيها فطوق بذراعه عنقها ومنحها شرف العبقرية المتوهجة ، ثم أسمعها عزفه على البيانو وعزف أخته أيضا ، وخرجا من ذلك اللقاء بخاتم من الماس ! ..

هذه كانت بداية « موزار » من ورد وماس ودرب مفروش بالأكاليل ، أما « برليوز » فكان طريقه أخشن ودربه أعصى .. كان في عامه الثالث والعشرين يوم دخل باريس بفنه الجديد ، ولم تكن أول مرة ، فقـــد سبق له أن أقام بها طالبا فى كلية الطب ، ثم لم يستطع الصبر على جو المشرحة ، حيث كان يقذف بقطع من جثث الموتى الى فئرانها ! .. لقد استطاع بعد جهد شاق أن يقنع والده بأنه لم يخلق لغير الموسيقى ، فقبل الدكتور برليوز أن يمنح ابنه فرصة سنة يمتحن فيها مواهبه .. وكان الدكتور الأب عمدة قريته وطبيبها ورجلا يبحث فى الفلسفة ويعتنق آراء روسو ، لكن الأم كانت تنظر فى حياة ابنها الذى يملأ لهـــا البيت بأنغام الكلارنيت والجيتار فيحزنها أن ترى بها كل هذا الاضطراب ، فلم يكن لها من رهافة الحس وصدق الفراسة ما يعينها على ادراك موهبته .. وفى باريس تلقته حياة طالب العلم الفقير الثائر على تقاليد أسرته ثورته على جمود القواعد الموروثة فى الفن .. حياة خالية من الأصدقاء ومن الحب ومن الراحة .. صار منشدا فى فرقة المنشدين بمسرح من عشرات المسارح الباريسية لقاء أجر شهرى زهيد ، واشترى لليالى الشتاء أرغفة الخبز الطويلة وقنانى النبيذ الرخيص ..

وهو مغمور وضائع قبل أن يلقى صديقا من أهل بلدته يدرس الصيدلة فيتقاسما مسكنا متواضعا فى الحى اللاتينى ، لأن الصديق يجيد الطهى ويرتق الأحذية وتطيب بعشرته الحياة ! ... وهو في هذه الفترة الصعبة من حياته يحلم بموسيقى جديدة تخاطب الانسان وتحاول أن تفسره من أعماقه التى تكمن فيها مشاعره وانبعاثاته وأشواقه ومصائره .. وهو

مؤمن بأن قلم الكاتب والشاعر وأصباغ الرسام وطينة المثال رموز محدودة لا تستطيع كالموسيقى أن تخلق حقيقة كاملة وحية ومتحركة .. ألم يستمع فى خشوع الى موسيقى بتهوفن ويعبر عن احترامه له بصيحته المخلصة : « نحن برابرة حتى نقيم لبتهوفن معبدا ! » ..

وهو يحس بقلبه سر عظمة بتهوفن الروحية عندما يقول لنا عنه :

« لقد كان احساس بتهوفن بمكانه فى العالم احساس من يرى فى نفسه خلية حية من خلايا الوجود الكلى ، كأنه هو نفسه فى شجرة الحياة الانسانية ورقة أو زهرة .. » .

– ٢ –

م موسيقى « فاوست » تملأ الآن بيتى ، وكم فى فن
برليوز فيها من أثر الأستاذ الأكبر بتهوفن ! .. لقد
كتبها وهو يلقى على تلميذات أحد المعاهد الموسيقية
دروسا فى مادة العزف على الجيتـــار ، وهى الآلة
الوحيـــدة التى يجيد العزف عليهـــا .. وفى ذلك المعهـــد تعرف
بفنـــانة أســـمها « كاميل موك » كانت تدرس للبنـــات مـــادة
البيانو ، فدفعته هذه الزميلة الى أن يصب خيبته في حب أول فاشل فى
« عمل فنى بسيط » قبل أن يقتحم موضوع « فاوست » العويص ،
وبذلك خرجت الى الوَجود سمفونية « حقبة من حياة فنان » التى
استرد بها توازنه النفسى وكسب قلب زميلته أستاذة البيانو .. وهذه
هى كل السعادة التى نالها من الدنيا حتى الآن .. أين هذه البداية من
تلك ! .. « موزار » منذ طفولته شعلة وهاجة فى أوروبا كلها ، حتى لقد
أسندت اليه رئاسة فرقة سالسبورج الموسيقية وهو صبى لم يكد يبلغ
عامه الثالث عشر ، وهام به عصره عشقا ! .. ومع موسيقاه يتدفق
ينبوع صاف من ألحان مرحة دخلت كلَ بيتِ وأرقصت كل قلب وكانت
مصدرا لكثير من روح الانطلاق المتوثبة التى نلقاها فى موسيقى «شتراوس»
وفى أغانى « شوبرت » الخفيفة .. لكننى اذا كنت أحب اصرار « موزار »
على التفاؤل والحب فانى أحب أيضا « ذاتية » برليوز الواعية وايمانه بأن
الانسان فى الكون كبير ونبيل وصاعد الى كمال وانسجام وجنة ! ..

هما صديقان قديمان عدت اليهما الليلة بقلب وفى ونفس ظمأى ..
لقد كان عمر « موزار » قصيرا لكنه كان كافيا ليطبع فنه الموسيقى الألمانية
بطابعه ويحررها من أسر الفن الايطالى ، ولكى يقول عنه « ڤاجنر » ان
الرجل الألمانى العادى ليس فى وسعه أن يقدره حق قدره ، فقـــد خلق
الرواية الألمانية الغنائية ، وفى أعماله ما يقطع بأن الموسيقا اهل لأن تقف

وحدها دون أن تمد لها الفنون الأخرى يد العون .. ونفس « موزار » سعيدة ومرحة ومستبشرة ، أما نفس « برليوز » فهى نابضة باللهفة والتسامى وبالرغبة المخلصة في تفسير الانسان وفهمه وحبه .. ومن أجل ذلك قبل كل شيء ، أحب موسيقا « برليوز » ورضى عنها على ما بها من بساطة وميل الى الانطواء .. لأنه رومانسى وواقعى فى الوقت نفسه ، والفن عنده حركة واختلاج وتعبير عن وقع الحياة وطريقة للاحساس والتأمل ، والفنان عنده شجرة . فهو زهرة حينا ، وعصارة حينا ، وحينا آخر ثمرة ! ..

وهو من أهل الفن واحد ممن ظلمهم عصرهم وأسكنهم الأبراج ثم لامهم على سكناها ، واذا كان مواطنوه الفرنسيون فى زمانه قد عجزوا تقريبا عن فهمه ، فان الألمان رواد الموسيقى فى عصرها الذهبى قد احسنوا الاستماع اليه وأحسنوا فهمه .. لقد هجر وطنه هربا من الجمهور الباريسى المدلل الطائش وهبط ألمانيا فى فترة خلت من العباقرة ، كأن أرضها كانت تنتظر الازدهار الغريب الذى سيتسم به منتصف القرن ، وكان « شومان » لا يزال حيا لكنه يعيش فى الظل ، وكان « فاجنر » شابا لم يسمع الناس بعد غير أثره الأول « رينزى » ، أما « براهمز » فكان طفلا .. لم يكن ذلك الشعب الذى يحس الموسيقى احساسا غريزيا قد أنجب ، بعد بتهوفن العظيم ، ذلك الموسيقى القادر على التعبير عن روحه وأحلامه وحقيقته .. وهنا جمهور موسيقى بطبعه ، تهتز روحه لكل رائع ، وليس فى خلقه المناورة والبلادة ، فهو جمهور ذواقة يصغى في صمت ويعجب فى ضجة ونشوة .. وهنا يذوق النجاح ذلك الموسيقى الحزين المؤمن فى أعماقه بأن فرنسا وطنه ليست موسيقية بطبعها ، والفرنسى لا يألف غير الموسيقى الخفيفة السهلة وألحان الصالونات المائعة ، لأنه يخشى الموسيقى الجدية العميقة ويسخر منها شأنه ازاء كل ما يحس انه يصدر عن المناطق العميقة فى الحس والتصور ، وليس عن العقل الواضح الواعى .. ولولا حب الفرنسيين للمسرح لما تركوا الموسيقى تعيش فى بلادهم ! ..

و « شعب الموسيقى » هو اذن الذى فهم « برليوز » وأحبه وتذوق خشونته وبساطته ورأى مع « شومان » فى فنه « مرحلة جديدة وبدء عصر جديد من التوتر العصبى الخصب » .. ولقد مر الفنان الفرنسى الغريب فى رحلته الناجحة بمدينة درسدن وقابل فيها « فاجنر » وهما

فى تلك الفترة مقتربان سنا ومنزعا ، لكن فى الفنـــان الفرنسى وقدة فى التصور وعطشا الى التجديد وضعفا فى البناء ، على حين يعتمد الفنان الألمانى على الدقة الهندسية والاتزان المنسجم ، فيبدو فنه أكثر وحدة وأدق توجيها وأقوى اقناعا ..

والتقت أنامل الألمانى بأمشاط البيانو وهو يتكلم فى حب عن ايطاليا الموسيقية .. كانت أرض دانتى لا تزال سيدة الفن فى أوربا .. وشعبها مفتون بموزار وموسيقاه الرشيقة ويخلع عليه لقب « أماديوس » ــ الذى يحبه الاله ــ وكان من سهولة النطق بهذا الاسم الموسيقى أن طغى على اسمه الأصيل « ولفجانج » حتى اضيف الى اسمه الرســـمى .. أما « برليوز » فقد دخل ايطاليا وهى فى أوج قرنها الرومانسى ، قرن روسينى وفرانزليست وبيرون وكيتس وشيللى وستندال وشانوبريان ونيتشه ، وقرن فاجنر ، وقبل كل شىء قرن بتهوفن .. ودخلها طالب علم ! .. وكان فى فلورنسة عندما رأى فى قلب ليلة من ليالى الوحدة موكبا فمضى على أثره حتى بلغ مكانا عرف أنه معرض الجثث فى المدينة ، وعند الباب اقترب منه أحد المرتلين وسأله ان كان يريد الدخول مع الداخلين ففعل..

ما الذى يدخل الفنان فى معرض الجثث ؟ ..

القلق والسأم والضياع وضغط الواقع كانت كلها معه وهو يقف عند جثة المرأة التى أقبل القوم ليتعرفوا اليها قبل أن يمضوا بها الى قبرها على ضوء المشاعل ، وكانت حياته هو نفسه خالية من كل دفء وكان طريقه مبهما مثل ليل المشرحة :

كانت جميلة وشابة فى ضحى العمر ، وكان المرتل قد رفعهـــا من شعرها ليرى الناس وجهها عن قرب ، فلما تركه من يده سقط الرأس الجميل على خشب المشرحة سقطة أحدثت صوتا مكتوما اهتزت له المناضد المجاورة بما تحمل من جثث تنتظر من يحملها الى الظلام الأبدى! « ومددت يدى فلمست اليد البيضاء الرقيقة ، ولو انى كنت وحـدى لانحنيت فوق تلك اليد واقبلتها ! » .

- ٣ -

فى روما كان يتفقه الموسيقى وهو ينتظر رسائل « كاميل » حبيبته التى لم تكتب اليه كما وعدته ، حتى جاءته بعد الصمت الطويل رسالة من أمها تقول له فى ايجاز بارد أن ابنتها ستتزوج السيد « پليبل » صانع البيانو المعروف باسمه ، وتدعوه أن لا يقتل نفسه أسفا ! ..

وأدرى الناس بجرح الغدر هم أهل الفن ، وانه لقاتلها ، تلك الأم البغيضة التى قوضت صرح أحلامه ، ثم انه قاتل ابنتها من بعدها ، تلك التى خانت عهده كما خانته أخت لها من قبل ، أما الرصاصة الثالثة فى المسدس فانها ستكون من نصيبه ! .. وعلى عجل جهز حقيبة سفر فيها مع ملابسه أصول « السمفونية الفانتستيك » والمسدس ! .. وانطلق خلال المدن الايطالية يتعجل الزمن للوصول الى مدينة الخائنة وهو يختلس لحظات صافية للتفكير فى شخصية « فاوست » الساحر العالم المغامر المفكر غريم الشيطان القديم في السيطرة على العالم ، تلك الشخصية التى تجسد فيها القرن التاسع عشر بكل ما حفل به من تفوق وغرابة واضطراب ! .. وذات مساء توقفت عربة السفر فى حقل ايطالى تغمره روح السكينة ويخيم عليه السلام : فمرت به لحظة من تلك اللحظات الحاسمة التى تنتصر فيها الروح على الرغبات المدمرة ، وانتصر مستقبله على الماضى ، وعاد من فوره الى أقرب فندق على الطريق فترك المسدس فوق احدى موائده ، هدية لمجهول ، وعاد الى روما ليعيش لفنه وحده .. مات الساذج الرومانسى الطفل وبعث الفنان الجديد الذى يتساءل فى جد ان كانت الصداقة تستطيع أو يستطيع الحب أن يأسو عند الفنان تلك الجروح البطيئة الالتئام التى يحدثها فى النفس فشل ظالم أو جمهور قاصر ؟ .. انه لم يشأ أبدا أن يخضع لذلك الجمهور الباريسى الأحمق الذى يكفيه من الأنغام أن يدندن بالرخيص السهل ! ..

وها هو بعد عودته الى باريس ، وكي يعيش ، يجمع الى الانتاج الموسيقى كتابة النقد والقصص للصحف والمجلات ! ..

بل ها هو من فرط الضياع يتزوج فى ساعة سأم ! ..

ظهرت في حياته مرة أخرى تلك الممثلة التى اذاقتـه فى الحب أول خيبة ، والتى كانت الى حد ما وحى موسيقى « الفانتستيك » و « العودة الى الحياة » ، فأخذها الى السفارة البريطانية من يدها وكان شاهده صديقه الموسيقى (فرانز ليست) ، فان « هاربيت سميسون » كانت انجليزية الجنسية .. وعندما خرج بها من السفارة خيل اليه أنه لم يعد وحيدا ، وان الموسيقى التى ستنبعث بعد ذلك من قلبه ستكون اروع وأجمل وأصدق .. وراح يعمل عملا متصلا لا هوادة فيه ، يؤلف موسيقاه ويكتب مقالات نقدية يكسب بها عيشـه الذى عز على موسيقاه وحدها أن تؤمن له ضروراته .. وكان بيته فى مونمارتر يستقبل في بعض الأمسيات ضيوفا من خاصة أصدقاء الزوجين ، الروائى الكسندر ديماس والناقد سنت بيف والشاعر هوجو والموسيقى شوبان .. وفى هذا البيت ولد ابنه ، ثم يعود الصمت والكدح والفشل .. ان سمفونيته الجديدة « هارولد فى ايطاليا » التى استمد موضوعها من قصيدة الشاعر بيرون المشهورة « تشايلد هارولد » سجلت فشلا مبينا ، من ذلك النوع الذى يبوء الجمهور بخزيه ! .. وهو الآن يقترض ويوقع صكوك الديون ، ويحترم بتهوفن ! .. وتبلورت مأساته ، وأى مهزلة أن يجد الموسيقى المبدع نفسه مضطرا الى كسب عيشه بتدبيج المقالات للصحف ، أو أن يجد فيلسوف مثل روسو نفسه مضطرا الى نسخ النوتات الموسيقية بالأجر الهين ، أو أن يجد أديب مثل شاتوبريان نفسه مضطرا الى الاتجار فى الجوارب ، وجوته العظيم الى قبول منصب الوزارة ! ..

انه الموسيقى الفرنسى الوحيد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى يمكن موازنة أعماله بآثار عمالقة الموسيقى فى أوربا فى زمنه ، وقد كانت الفترة التى عاش فيها آخر العهد بأسطورة الأبراج العاجية على صورتها المأثورة ..

ان أعمدة البرق وأسلاك التليفون وكل طلائع الحضارة الحديثة كانت

قد نصبت على قمم الأبراج العاجية ، بكل رنينها وطنينها ، فلا سبيل منذ ذلك العهد الى صومعة خالصة لصاحبها يتمثل فيها حبه للناس فنا كريما نافعا وخلاقا ، وكيف يقوم برج عاجي أو غير عاجي في عصر أخذت تتوطد فيه آيات العلم ومستحدثات الحضارة ؟

لقد كان ذلك القرن آخر مرحلة من مراحل فن يترهب له اهله ، وقد شهد آخر « الحالمين » وآخر « العشاق » وآخر « الشعراء » ، أولئك النماذج الأخيرة من تلك الفصيلة التى كانت تجد فى السعى الدائب وراء مثل أعلى قانونها ، وكان هكتوربرليوز واحدا من آخر سكان الأبراج ! ..

الفجر يدنو وبيتى تملؤه الآن خفقات « الناى المسحور » ، وانى ليحزننى أن يكون مثل هذا الموسيقى برشاقته الأصيلة المتفائلة قد اضطر الى أن يكون موظفا عند أى أمير ! .. وأفهم وأنا أسمع موسيقا « موزار » ، كم كانت فى حياته هو الآخر ، على وهجها وتألقها ، ساعات صعبة ! .. لقد عرف هو أيضا فى باريس الطائشة شيئا من الحاجة والخيبة .. وكان عمره عشرين سنة عندما طلب من « أميره » أن يعفيه من أعباء وظيفته كرئيس لفرقة سالسبرج الموسيقية وانطلق مع أمه الى باريس ..

لكن تلك المدينة ذات الألف وجه كانت فى هذه المرة قد نسيت « الطفل المعجز » الذى هتفت له منذ سنين ، فلم يجد فيها من توقع أن يجد من أصحاب القلوب والمشاعر ، وادهشه أن لا يلقى هناك من يحسن ادراك الموسيقى الجميلة الصادقة وينفعل بها وينسجم معها .. ويكتب الى أبيه : « لو خرجت من هذه المدينة بذوقى سليما لحمدت الله ! ... » .

لكأنى أرى الفنان عائدا بقلبه الحزين الى قيد الوظيفة وعجرفة الأمير ، وعائدا وحيدا ، لأن أمه ماتت على ذراعه فى باريس .. وهو الآن يرأس فرقة البلاط ويعزف على الأرغن فى الكنيسة ويعانى وضعا شاذا ومؤلما فرضته عليه حياة مجتمعه فى عصره .. فنان تعرف اسمه اوروبا كلها وتهتف له ڤيينا حاضرة الموسيقى ويقدره الفنانون حق قدره يعانى من غطرسة مولاه وعجرفته كل مر موجع ، ويلقى منه — وما هو الا أمير — مثل ما يلقى حارس اصطبله أو ساقى مائدته من مذلة ومهانة ! .. لا ! .. انه مرة أخرى يفر من ذلك الأسر البغيض الخانق ويعتزل خدمة الأمير ويرحل فى هذه المرة الى ڤيينا ليعيش فى أحد مساكنها المتواضعة عيشة الفنان الفقير الحر .. وڤيينا فى ذلك الوقت تنفخ بأنفاس الموسيقيين

الكبيرين جلوك وهايدن ، وللموسيقى فيها مجد ، وفيها بنات صارت واحدة منهن زوجة له ، فان كان يعنيك اسمها فهى كنستنزا ..

وكان زوجا مسرفا وكانت زوجة مولعة بالترف والمرح ولا جلد لها على تدبير بيت ، فصارت متاعبه خليقة أن تغريه بصب أحزانه صبا رومانسيا كئيبا فى موسيقاه .. لكنه ــ وهنا أعشقه ــ صب فى انتاجه كله شجاعة ومرحا وتفاؤلا وحبا وايمانا .. وكان ربما بلغت به الفاقة فى بعض الأيام أن يعجز عن الحصول على قوت يومه ، لكن ينبوعه المرح المستبشر ظل متدفقا وخلابا .. انه انسان شجاع وانا أحبه ! ..

الآن تنساب فى هداة الفجر أنغام « زواج فيجارو » التى تدخل القلب كأنها بضعة من كل إقلب ! ..

اسمع ! .. اسمع ! ..

أما الآن فهذه هى أوبرا « دون جيوفانى » التى نظم لها شعرها شاعر صعلوك مرح اسمه « دابونتى » كان يسكن على الجانب الآخر من الشارع الذى يقيم موزار فى أحد مساكنه الصغيرة .. وطالما استمتع الناس بمشهد هذين الفنانين وهما يتبادلان الملاحظات والقوافى والألحان من نافذتيهما ، عبر الشارع ، أو يسيران في الشارع نحو صاحب حانة يغنيان له كى يجود عليهما بزجاجة تعينهما خمرها على الابداع ! ..

شهاب سطع ثم خبا ، موزار الذى مات فى الخامسة والثلاثين فعجزت زوجته عن تجهيز جنازته ومدفنه ، فأعانها فى ذلك بعض أهل الخير ! ..

وذلك « الذى أحبه الاله » سارت جنازته تحت سماء ترعد وتبرق ويسح سحابها ، ووراء الجثمان عدد إقليل من الناس عجزوا من متابعته حتى القبر فعادوا وتركوا الجثة لسائق العربة !..

هكذا لم ير أحد دفن الهيكل الذى سكنته تلك الروح الموسيقية اللذيذة العذوبة ، وانتهت قصة الصيت والحرمان والديون ، وبقى هذا الفن الحى الذى يختلج بشجاعة النفس المتفائلة ويقطر بالصفاء .. شكرا لنايه المسحور ! ..

— ٥ —

« روميو وجولييت » تحملها الآن اسطوانة واحدة هى التى كتبت فى سبعة أشهر كاملة من عمر الفنان. كان بيته خلالها جحيما من عذاب يومى متصل ، فما عاد يطيق من زوجته الأرلندية أعصابها التالفة وغيرتها الحمقاء ، وتاقت روحه آخر الأمر الى الخلاص من هذه المرأة التى اشركها فى حياته فى ساعات ضعف ، والتى تفض رسائله وتفتش مكتبه وتسمم جوه بالعتـــاب والصراخ والملام ، وتدمن الخمر لتنسى أوهامها المريضة الظالمة .. انها غلطة حياته .. كان عليه أن يدرك أن مثل هذه المرأة لا يسعها أن تفهم أو تحس رغبة الفنان فى الوحدة والسلام وحقه فيهما .. وهكذا ، وعلى النهج الباريسى الشائع ، صارت له عشيقة !... وهو الآن يقيم الحفلات ويكتب المقالات لينفق على بيتين وامرأتين !.. زوجته العصبية ومغنية أسبانية الأم بارعة الجمال عاطلة من كل موهبة هى الأخرى الا القدرة على الهبوط بالفنان من ذرى الأحلام النافعة الى سفوح العيش اليومى الباردة !....

وفى هذه المرحلة من حياته عاد الى التفكير فى شخصية «فاوست».. وفى فترة الجمود التى تتهافت فيها الحيوية الفنية وتخـــذل الارادة صاحبها ، تنشط القوى اللاواعية وتستريح الخلايا الايجابية فى الكيان المعنوى للفنان وتتكشف عن قوى جديدة ...

وانا هنا بالطبع اتكلم عن الفنان الأصيل .. الحقيقى ..

كان « فارست » مع برليوز وهو يطوف بعواصم أوربا الوسطى ، وكان معه فى ڤيينا أرملة موزار وبتهوفن .. ثم كان نصيب العمـــل الكبير ، فى باريس ، الفشل المروع !.. كيف حدث هذا ؟ .. كيف يخذل ذلك العمل الجليل وكيف تسكن المرارة فى قلب رجل عاش ثلاثا واربعين

ـســـنة « فى المعمل » قبل أن يطمئن الى انتاجه هذا ويقدمه للناس ؟!..

لقد قال الرسام المعذب ڤان جوخ ان أهل الفن يحسون انهم حلقات في سلسلة لا تنتهى ، وكل منهم يدفع الثمن بشرف وفرح من صحته وحريته .. والثمن الذى دفعه برليوز كان فادحا ، فهو الفنان الذى أحس فى أعماق وجدانه — فى قمة العصر الوجدانى — أنه فى وطنه غـريب وغير مفهوم .. كم تاقت نفسه الى ناس يفهمون ! .. فى روسيا لقيه اكبار واعجاب وقيل له أن « فاوست » هى احدى روائع القـــرن التاسع عشر ، وزادت أرباحه من الحفلة الواحدة فى موسكو على مكاسبه من فنه طوال شهور فى باريس التى لن تســـمح بعرض « فاوست » فيها الا بعد ثلاثين سنة ، وبعد وفاة مبدعها !..

له بيتان وامرأتان وجمهور طائش خفيف وارادة صلبة .. ثم لم تكد تنقضى فترة الحداد التقليدية على زوجته التى ضربها الشلل حتى كان قد تزوج عشيقته « مارى رسيو » وكتب لابنه الضابط بالأســـطول التجارى يبلغه الخبر ويبرر تصرفه بقوله : انه ما كان يستطيع أن يهجر المرأة التى عاشرته أربعة عشر عاما ، وان أيسر الجزاء لها أن تشاركه اليوم حياته وتحمل اسمه ..

ثم جاء أحد أيام صيف سنة ١٨٦٢ فسقطت الزوجة الثانية فجأة صريعة ازمة فى القلب ، وللمرة الثانية صار أرمل فى الستين .. وهذا الرجل الوحيد هو الذى سيكتب « طفولة المسيح » وهو يفكر فى تجديد ايجار القبر الذى استأجره فى جبانة سان فنسان القديمة ، ثم عـدل عن الفكرة ورأى أن ينقل من ذلك القبر المستأجر تابوت زوجته الأولى .. ولم يكن معه المبلغ الصغير اللازم ، فرأى أن ينقل بقايا « هارييت » ليجمعها ببقايا « مارى » فى قبرها بمقبرة مونمارتر ، وهما الآن على كل حال لن تختصما ! ...

وقد رأى كل شىء بنفسه واشترك فى ذلك المشهد المثير وكان مع الرجال وهم يرفعون المعاول ورأى الفوهة الفاغرة فى الأرض والتابوت وقد كشف عنه الحفار غطاءه الخشبى المتعفن ، وتبدت لعينيه المرأة التى منحته الحب والعذاب ، هيكلا فى كفنه ، وتحته رماد كالح يرسم صـــورة ـنـة لقوام امرأة كان يوما فتنة للناظرين .. وتناول الرجال كل هــذا ووضعوه في النعش الجديد الخالى ، وانتقل الموكب الى جبانة مونمارتر حيث أشرف الفنان الشيخ على اجتماع امرأتيه فى قبر واحد ..

ورأى بين تابوتيهما تابوتا ثالثا .. فارغا ينتظره !...

الوحدة ، المرض ، النسيان ، التوتر العصبى ، الالتهاب الرئوى ، وكل شيء من حـــوله يذوى ويمـــوت ، حتى ابنه يموت فى سنته الثالثة والثلاثين بالحمى الصفراء ، وها هو نفسه أخيرا يرقد بين امرأتيه فى سلام ، ويستريح !..

شكرا لك يا برليوز ، شكرا لك ياموزار ، شكرا لكما من أجـــل هـــذه السهرة التى أغنيتما نفسى فيها بالتفاؤل والحب والايمان ، وماذا يهمكما بعد ذلك أو يهمنا ان كان أحدكما لم يجد فى العاصفة من يدفنه غير سائق عربة الموت ، وان كان الثانى بلغ من جبروت حظه السيىء أن يتبعـــه الى قبره . فان اثقـــل أعضـــــاء الكنسر فتوار دما قد أصر على أن يلقى فوق قبره كلمة تأبين ، وكان برليوز قد قال له وهو على فراش الموت : « اذا أصررت على ان تؤبننى عند دفنى فانى أفضل أن لا أموت !! » .



أفول الآلهة

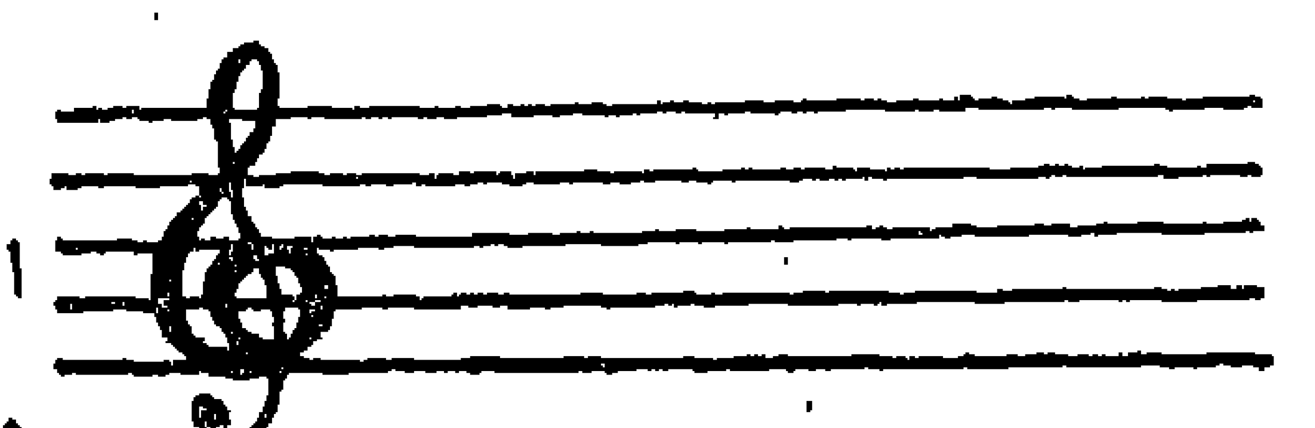
« لا ملك ولا امبـــــراطور

بل ان يكون المــــرء هنـــا ،

واقفا يقود أوركســـتراه ! »

(فاجنـــر)

— ١ —



ليلة بعد ليلة ، وعاما فى أثر عام ، أوربا الدامية مرتعدة فى قبضة الرجل القصير المغامر ، ونابليون يذرعها ويدك عروشها ويضع لها مبادىء جديدة ، ويريق فيها الماء ، ويجلدها بتلك الرياضة العنيفة المنهكة ، ثم تخرج من أفواه ملايين الرجال صيحة ضخمة : « كفى ! » .. رجال يحسون في قرارة انفسهم ذلة المجاعة الروحية ويحلمون بالسلم بعد الحرب وبالراحة بعد التعب وبالحياة بعد الموت ، لم يعد يعنيهم ما يطرأ على خريطة العالم من تعديل ، بل الاصغاء فى صمت المساء الى ترانيم الطير والى خلجات قلوبهم .. واسدل الستار على مغامرة العبقرية السياسية لترفع الرومانسية بنودها وليطبعد الى المسرح الكبير رهط المثقفين والحالمين ، وبعد السيف الكتاب ، وبعد القرابين الى اله الحرب، لم يعد الألمان والفرنسيون والانجليز يبحثون الا عن الراحة والاستمتاع وسكينة النفس .. وعاد أبناء القرن التاسع عشر الى بيوتهم يبحثون عن الحلم الرقيق فى مكان الحقيقة الفظة الجافية ، عن المثل الأعلى والجمال .. فى ألمانيا أصبحت الامارة الفعلية لشيلر وجوته ، وفى فرنسا نهض المسرح ليكون بديلا من الحياة ، وتهيأت انجلترا لاستقبال أعظم شعرائها ، ورفع شباب أوربا العائد من ميادين القتال رأسه وأرهف سمعه للموسيقى الجديدة التى بزغت من ضمير الملايين . وعلى أصوات المدافع ، وبعد انتصار نابليون على الألمان فى معركة بوتزن بيوم واحد ، فى السبت ٢٢ مايو عام ١٨١٣ ولد رتشارد ڤاجنر فى مدينة ليبزج التى يحتلها الحلفاء ويذرع شوارعها جنود بروسيا ، شأنها فى ذلك شأن درسدن وغيرها من مدن سكسونيا . وكان رتشارد تاسع أبناء فردريك ڤاجنر سكرتير ادارة البوليس بالمدينة ويوهانا برتز الجميلة النشيطة ، فلم يحسن استقبال الوليد غير عمه أدولف الذى كان موسوعة متحركة من

الأدب والنقد وفن المسرح وعلم اللغات ، والممثل لدفيج جاير الذى كان مكانه المعهود على مائدة آل فاجنر ينتظره دائما حتى يعود من أسفاره الفنية فى كل المدن الألمانية .. ولا يلبث « الامبراطور القيصر » أن يدخل المدينة على راس الجيش الفرنسى ويدخل فى أثره وباء التيفوس فيحصد فيما يحصد من أرواح الناس فردريك فاجنر ويترك يوهانا وحدها أمام مشكلة الحياة ، وبين ذراعيها تسعة من بنين وبنات .. وبوفاة الأب أصبح الممثل جاير يعيش فى البيت مع يوهانا ، بينما يغوص العم أدولف الى أذنيه فى بحار اللغة ودواوين الشعر القديم ! .. ولم تجد المرأة الوحيدة الشابة روح العون الا فى اخلاص ذلك الممثل الذى كان رساما قبل أن يعتلى خشبة المسرح والذى يشبه زوجها الراحل شبها عجيبا ، وكان يحبها ، ولعله حب قديم طويت عليه الجوانح ، وكانت تحبه ، وتذهب بعض أقوال السوء الى حد التأكيد بأن رتشارد الصغير هو ثمرة هذا الحب ..

وتم زواجهما فى صيف ١٨١٤ وهى فى التاسعة والثلاثين وهو يصغرها بسنوات خمس ، وانتقلت الأسرة الى درسدن ، واستعان جاير بفرشاة الرسم الى جانب خشبة المسرح كى يكفل لتلك الأسرة الضخمة شيئا من هناء .. وصار بيته ومرسمه كعبة القصاد ومنتدى أهل الفن والفكر ، يقرأون الشعر ويمثلون كوميديات من تأليف رب البيت ، وقد يشركون الأولاد والبنات فى القيام ببعض الأدوار الصغيرة .. والتسعة الصغار فى ذلك البيت الموعود بالعبقرية كأنما مستهم ربة الفن بجناحها : فهذه روزالى البنت الكبرى تتطلع الى مجد المسرح ، واختها لويز اخذت الفن من الممثلة الشهيرة « مدام هارتوينج » صديقة ابيها ، واخوها البرت يهجر دراسة الطب ليحترف الغناء ، وكلارا تنذر نفسها بدورها للمسرح .. انها أسرة اصطفاها الفن ، وعائلها الجديد نفسه لا يقنع بالتمثيل والرسم بل يجمع اليهما الغناء مع الأوركسترا الملكى الجديد فى درسدن ، بعد أن اشرف على تنظيمه فنان مجدد لفت الأنظار هو « كارل ماريا فيبر » .. ورتشارد ؟ انه بهلوان الأسرة غير منازع ، ينزلق على درابزين السلم ، ويمشى على يديه ، ويهمل دروسه دون أن يعنى به أحد ، وقد يلعب دورا صغيرا فى احدى « التمثيليات العائلية » ، وقد يعزف من حين الى حين على البيانو ، دون أن يجد فى ذلك لذة خاصة ، ثم ينطلق الى الشارع ليمتع نفسه بألعاب البهلوانات الذين يمرون أمام البيت ، فيقف جامد

الطرف ، لاهثا ، مأخوذا ، أمام ذلك البهـــلوان العجيب الراقص على الحبل .. تلك أعظم ضروب البسالة البشرية : ذهن صاف وبدن حر ، وعصا كالميزان بين اليدين ، وارادة خارقة .. هكذا ينبغى أن يمشى المرء الى هدفه دون أن يصيبه الدوار ! .. يقتل فى نفسه الخوف ، وينال النصر العسير ! .. ذلك شيء لا سبيل الى تعلمه في المدرسة ! ..ما له هو وعلم الحساب واللغات البائدة ! .. وهو يحدث نفسه اذ يرى «المايسترو» الأعرج وكارل ماريا فيبر ، فوق منصته ، وقد شخصت اليه الابصـار وهفت اليه الأسماع : « لا ملك ولا امبراطور ، بل أن يكون المرء هنا ، واقفا يقود أوركستراه ! .. » .

وكانت أختاه « روزالى » الممثلة و « كلارا » المغنية قد استقرتا فى براغ ، فرأت أمه أن تذهب فتقيم معهما في تلك المدينة ، على أن يلحق هو بها بعد انتهاء العام الدراسى ، لكن حنينه الى جو الأسرة ورغبته فى السفر اليها دفعاه ذات يوم نحو عربة أنيقة من عربات السادة كانت تمر على الطريق ، ومد قبعته سائلا صدقة .. وكانت أول مرة يمد فيها يده ، لكنها لن تكون الأخيرة .. وانتقلت الأم بعد قليل الى ليبزج لتشرف على مستقبل واحدة أخرى من بناتها هى «لويز» ، فعاد الولد الثائر ابن الخامسة عشرة الى التفكير فى السفر ، وفى هذه المرة هجر مدرسته بدون اذن فلقيته الأسرة فى ليبزج أسوأ لقاء ، ولم تهدأ نفسه الا عندما سمع ذات مساء فى « الجيفاند هاوس » ــ قاعة الكونسرت المشهورة في ليبزج ــ احدى سمفونيات بتهوفن ، وقد بلغ من انفعاله بها أنه عاد فى تلك الليلة الى بيته محموما .. كان كأنما رفع عن روحه حجاب أو نبت له جناحان .. ومحيت من قلبه كل عذابات القلق ، وأحس أنه يولد ولادته الثانيـــة العظيمة ، فى عالم الموسيقى .. ولم تكن له كغيره من الموسيقيين الصبيان آلة معينة يولع بالعزف عليها . وانما كانت الرغبة الوحيدة المسيطرة عليه هى أن يتعلم التأليف .. ان ما يريد التعبير عنه ضخم ومعقـــد وقوى ، فكيف تؤديه أوتار الكمان أو أمشاط البيانو وحدها ؟ .. انه فى حاجة الى أوركسترا متعددة متكاملة وتآلف هارمونى متكتل .. وها هو فى زهرة الصبا ساهر تحت المصباح لينقل على الورق أعمـال بتهوفن التى كان أول ما فتنه فيها أن القواعد ــ قاتلة كل موهبة جريئة مبتكرة ــ تخرق فيها على نحو رائع .. وفى موسيقا بتهوفن وحـدها وجد الابداع المنطلق والطرافة غير المتوقعة .. ان فى موسيقا بتهوفن نفس

الابداع الذى يجده فى أقاصيص هوفمان الرائعة : عمل منطقى حتى فى مجافاته للمنطق ، رائع حتى فى غموضه .. وفى كل فن فضيلة شعرية باقية تنتظر الروح الحساس الذى يلتقطها ..

وفى مسرح البـــلاط الجـــديد عرف « فاوست » و « هملت » و « السمفونية التاســـعة » ثم استقبلته جامعة ليزج فى سنة ١٨٣١ فعلمه رفاقه فيها سهر الليل فى البحث عن اللذات ، وكان التطـرف فى كل ما يزاول من عمل أو لهو أحب شيء اليه ، فعرف شهوة جديدة طاغية هى المغامرة ، وبدأ فى حياته ذلك الصراع المفجع الطويل لانتزاع المال من براثن الحظ الضنين ، وعرف الكسب والخسارة أسابيع متتالية حتى قادته شهوته ذات ليلة الى ذلك الحد الأقصى الذى تأكل الشهوة فيه نفسها وتقتل معها صاحبها أو تموت هى وحدها ليعيش صاحبها بعدها حرا من عبوديتها .. كانت أمه قد عهدت اليه بقبض معاشها ، فقرر أن يخاطر بهذا المال الذى يتوقف عليه كيان أهله ، فاما خسرد فاختفى الى الأبد عن أهله ووطنه ، واما كسب به ما يســـدد ديونه المتراكمة ، ثم لا يعود بعدها الى المقامرة أبدا ... ولعب ، وخسر مرة بعد مرة فلما وضع آخر ريال فى يده على المائدة الخضراء بلغ من انفعاله أنه خرج ليقىء ، فلما عاد وجد الريال ريالين ، ثم رآهما يتضاعفان ، مرة بعد مرة ، فلم يحرك ماله من مكانه حتى صارت جملة مكسبه كافية لسداد معاش أمه ومجموع ديونه معا ، فحمل الثروة الصغيرة وهرع الى الباب : « ومن ذلك اليوم لم يعد القمار يغرينى .. كانت أزمة شديدة أمتحنت فيها روحى امتحانا حاسما .. وأدركت أن الوقت قد حان لتعلم شيء أكرم من اشباع الشهوات .. » .

وتلقته الموسيقى مرة اخرى وجذبت روحه جذبة عنيفة ، فلم يمض نصف سنة حتى كان قد نشرت له « صوناتة » وعزفت له « افتتاحيتان » فى قاعة الكونسرت ، ثم أتم عملا جديدا وحمله الى فيينا عاصمة الموسيقا وصومعة بتهوفن وأستاذه موزار ، وكان عمره يوم ذهب يغـزو فيينا بسمفونيته تسعة عشر عاما ! .. ولكن فيينا كانت قد تغيرت وتقلص عنها ظل بتهوفن وشيعته وأصبحت عاصمة راقصة تتغنى بألحان « يوهان ستراوس » وترقص على فالساته المرحة ! .. وهنا امتدت اليـه يد أخيه « البرت » الذى غدا مغنيا وممثلا ملحوظ المكانة فى مسرح مدينة « فرتزبرج » ، فاستطاع أن يلحقه بوظيفة « رئيس المجموعة » فى المسرح،

وهو عمل كان راتبه منه يكفى للانفاق على حياته فى غرفة مفروشة متواضعة كانت تنتظره فيها حمى الابداع .. وها هو ينظم الشعر ويلحنه ، ثم يحلم بتجسد هذا الحلم الجميل الماثل فى قصيدته « الحوريات » وموسيقاها .

« لقد خلق عالما لم يكن موجودا » وهو يريد الآن أن يرى هذا العالم على المسرح ، حقيقة متجسدة .. لكن المشرفين على المسرح كانوا حريصين على التقاليد وأعداء لكل مبتكر ، وهؤلاء دائما ـ وفى كل جيل ـ كالظلام يكره كل نور ! .. وكان مسرح « مجد برج » قد عرض عليه قيادة إفرقته الموسيقية ، فسارع وهو مغضب الى اقبول هذا العرض ، وكانت الفرقة يومئذ فى موسمها الصيفى بحمامات « لوتشستاد » فلحق بها . وكان لقاؤه الأول بمديرها صدمة لحساسيته المرهفة ، فقد ابلغه الرجل فى صراحة أن العمل يسير على نهج سيىء مضطرب ، وافراد الفرقة لا يعبأون بمران أو مراجعة ، وهم مع ذلك يزعمون انهم سيقدمون « دون جوان » بعد أيام ! .. وكان الرجل وهو يتكلم يمد ذراعه خلال النافذة الى شجرة كرز دانية الغصون مثقلة بالثمر فينتزع منها ثمارا يلتهمها جملة ثم يبصق نواها بعيدا ، فكاد فاجنر وهو ينفر اشمئزازا ان يرفض المنصب الذى نسج حوله في الطريق غلالة الأحلام ، لكنه لم يلبث أن طاب بالوظيفة نفسها عندما رأى الممثلة الأولى فى الفرقة !

كانت « ولهلمين بلانر » شابة جميلة قدر لها أن تمنح هذا العبقرى قلقا خصبا وغيرة منتجة ويأسا رائعا ، وكانوا يدعونها « مينا » وكانت عاقلة هادئة الطبع ، وكانت فى الخامسة والعشرين ، فهى تكبره بأربع سنوات ، وقد أعجبها هو أيضا لولا أن سمعت عنه أنه يواجه وعيد دائنيه الشاعر الثرى « تيودور أبيل » متمرنا على ذلك الفن الذى يحتاج حقا الكثيرين باجراء بسيط ، هو أن يكتب بين الحين والحين الى صديقه الى براعة فائقة ، فن الاقتراض :

« انى أستحق العظة التى ستلقيها على ، ولكن ، قل لى : هل يسعك أن تجعل منى من جديد رجلا ؟ أرسل الى اذن مئتى ريال » !

فى الرابعة عشرة من عمره كان يمد قبعته على قارعة الطريق ، وفى الثامنة عشرة يقامر بمعاش أمه ، وهو الآن فى الحادية والعشرين لا يزال يسأل الناس أن يجعلوا منه الرجل المنظم الذى لن يكونه ابدا ! .. وهو اليوم يطمع فى شىء كبير ، فى قلب محب ، قلب « مينا » المتأبية الرزينة ..

المال ؟ لعنة الله على المال ! .. لعل خير ما يفعل هو أن يقـــدم « كونسرت » لحسابه الخاص ويشرك فيه مغنية مشــهورة ويضاعف الأوركسترا ويصنع آلات خاصة جديدة لاحداث صورة صادقة لميدان القتال بمدافعه وطلقاته ! .. لكن الجمهور ولى الادبار مذعورا عندما بلغت المعركة ذروتها فوق المسرح ، تاركا فاجنر وجها لوجه أمام دائنيه وامام ادارة المسرح أيضا ! .. الفرار الفرار من « مجدبرج » ومن « مينا » التى خاب أملها .. الى « ليبزج » حيث يعترف لأسرته بديونه ويعانى مرة أخرى تلك المذلة القاسية ، فيذهب الى « بروكهاوس » زوج أخته ، التاجر الغنى ، المدل بثرائه وسخائه ، ليسأله قرضا جديدا .. وما أن يحصل على بعض المال من هذا الطريق الصعب حتى يعود الى «مجدبرج» .. وفي ٢٩ مارس سنة ١٨٣٦ رفع الستار فى المسرح عن أول أوبرا لرتشارد فاجنر تعرض عرضا رسميا ، وكان نصيبها الفشل . وفى الليلة التالية أعلن المسرح للجمهور مصرع الأوبرا الجديدة والعدول عن تقديمها ، فبادر الدائنون برفع شكاواهم الى القضاء ، وصار كلما عاد الى بيته وجد على بابه اعلانا من « محضر » .. ولم يبق له غير كلبه الأمين ، ثم اختفى الكلب بدوره ! .. أما « مينا » فقــد رحلت الى كونجسبرج لتظهـــر على مسرحها .. فجمع هو أيضا متاعه القليل فى ظلمة الليل وولى وجهـــه فى هذه المرة شطر برلين ، ليعيش فيها وحيدا مغمـورا ، لا مورد له الا ما ترسله اليه « مينا » الناجحة من نقود ! .. لكنه لم يلبث أن ساورته الغيرة : من أين لها هذا المال كله ؟ .. وعاد يطوى الأرض الى كونجسبرج فوجد عند صاحبته رسائل حب من تاجر كهل غنى ، فقامت قيامته ! وقضى الليل كله يهددها بالهجران الأبدى . وفى اليوم التالى تزوجها !

وكان ذلك أشبه بطبيعته ولا ريب ، فان أمثاله من أصحاب شهوة تعذيب النفس لا ينتقمون من عشيقاتهم الغادرات بهجرهن ، وانما يتمثل انتقامهم منهن فى الغيرة الملتاثة والرغبة فى الامتلاك ، بأى ثمن .. وقد تم الزواج في ٢٤ نوفمبر من سنة ١٨٣٦ دون أن تحضره أمه أو أهل عروسه، وانما حضره أهل الفن فى المدينة ، ومنذ صبيحة الزفاف كان عليه أن يذهب الى المحكمة ليدافع عن نفسه ضد دائنيه ! .. وكان يعلم أن الرجل فى القانون البروسى يبلغ سن الرشد فى الرابعة والعشرين ، وفى القانون السكسونى فى الحادية والعشرين ، وكانت سنه الحقيقية يومذاك ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ، ففى دار الحكومة اضاف الى عمره ســنة

ليستطيع أن يقول انه بلغ سن الرشد ، وفى المحكمة انقص من عمره سنة لكى يظل قاصرا .. وهكذا بدأت حياته الجديدة ، من فورها ، على الأكاذيب ! ..

وبعد زواجه بستة أشهر عاد الى بيته ذات مساء فوجده خاليا وقد رحلت عنه زوجته دون أن تترك له كلمة تفسر بها مسلكها ، فألقى من يده عصا القيادة وانطلق وراءها يطاردها من مدينة الى مدينة .. لم تكن الزوجة الغادرة بغيته ، بل كان بطبعه وسليقته يبحث عن العشيقة التى تمردت على سلطانه .. وعندما عثر عليها سألها أن تعود اليه وتهجر المسرح لتقر في البيت ، لكنها كانت تحب مهنتها ، فلقد كانت هى أيضا فنانة حتى أطراف أناملها ، فتركته ذات ليلة وفرت مع عشيقها الثرى ، وهنا نفض عن قلبه حبها ، شأن كل حملة شعلة الفن ، تخيب فى الناس آمالهم فيعكفون على جراحهم فى صومعة الليل ، ليصنعوا فنا باقيا يعيش على الزمان .

- ٢ -

حيث يلتقي الشرق والغرب ويصطدمان ، في ميناء « ريجا » الروسى ، عاش زمنا قبل أن يتلقى من الزوجة الغادرة رسالة حزينة ، فقد عادت من مغامرتها الطائشة تائبة تعترف بخيانتها وتضرع اليه أن يقيلها من عثرتها ، وكان وحيدا وكان مزاجه الحسى الطعين يعذبه ، فكتب اليها يدعوها اليه ، ووجد في مذلة هذه المغلوبة على أمرها انتقاما شهوانيا عادلا .. وجاءت فصنعت له في أيام بيتا حقيقيا ، وصار المارة في شارع سنت بطرسبرج يلمحونه في ثيابه المنزلية وعلى رأسه طربوش وبين شفتيه مبسم طويل خزفي .. ولعله شغل بما يخلق في العزلة الخصبة ـ أوبرا « رينزى » ـ عن عمله الرسمى كقائد للفرقة الموسيقية ، والمشرفون عليها قوم لا تعنيهم العبقرية الخلاقة بقدر ما يبحثون عن الموسيقى الخفيفة السهلة التى ترضى حاجة الجماهير ، فأصبح يوما ليجد نفسه من جديد في الشارع !

وما جدوى مقامه في حظيرة دجاج ، وهو الذى يضع منذ شهور بيضة نسر ؟

ان مقامه يجب أن يكون في باريس مركز الثقافة الفنية ومسرح العبقريات ، ثم ان الموسيقا وحدها هى الوطن لمن لا وطن له !

وهكذا باع أثاث بيته في خفية من دائنيه الذين كانوا قد حجزوا على جواز سفره ، وانطلق نحو الحدود في عربة من عربات السفر وليس معه غير الأحلام الكبيرة وأصول أوبرا « رينزى » وصاحبته التائبة وكلبه روبر .. وعبر الحدود خلسة الى الأرض البروسية ، فقال لصاحبته وهو يفحص خريطة منشورة بين يديه : « لن نقترب على كل حال من كونجسبرج ، فان نصف أهلها من طائفة المحضرين ! » .

ومن احد الموانى البروسية اقلتهما سفينة شراعية تقصد لندن ، وكادت السفينة تغرق في بحر ثائر تغشاه الظلمات فجنح بها ربانها ليلا الى شاطىء النرويج ، والقت مراسيها فى أحد « الفيوردات » ـ خلجان النرويج الصخرية ـ وانشد نوتيتها أغنية النجاة فرددتها جدران الصخر الشاهقة العارية .. وارهف الموسيقى المهاجر سمعه الى « نشـــيد النوتية » ووعاه .. ثم نشرت السفينة قلوعها بعد أيام ثلاثة .. ولم يزد مقام القافلة فى لندن عن أسبوع كأنه سمفونية اليأس .. أما باريس فقد تلقت الفنان وأهله بضباب فجرها .. وكان على عرش الموسيقى فيها « أوبير » و « هالفى » و « أدم » وقلة من أمثالهم ، وكانت الموسيقى الشائعة على مسارحها للايطاليين « روسينى » و « سبونتينى » وللألمــــانى « ميير بير » .. وقبل كل هؤلاء كان هنــــاك « هكتور برليوز » صاحب « السمفونية الفانتستيك » و « روميو وجولييت » .. وها هو يدخل هذه المدينة غريبا مجهولا وفى حقيبته موسيقى يعانيها مستمعها كما يعانى معضلات المنطق أو الهندسة !

صــــبت له باريس فى الكأس كل المرارة وابت ان تأكل من حلواه الجديدة ، ولم يفتح أمامه باب واحد من الأبواب التى حسب أن خطابات التوصية التى يحملها ستفتح له مغاليقها ، وهز الناشرون أكتافهم عندما قرأوا مؤلفاته ونصحوه بالعودة الى وطنه ، وخلا جيبه ـ مرة أخرى ـ من المال ، وهام فى الشوارع ، وحمل الى حانوت الرهن ساعته ، ثم أدوات مائدته الفضية المتواضعة ، ثم هدايا زفافه الصغيرة ، ثم حلى زوجته ، ثم مجموعة ملابسها المسرحية ..

وكما تنبعث فى سمفونية اليأس نغمة واحدة متكررة ترمز بين الحين والحين الى الأمل الباقى كأنها بشير بين يدى الرجاء ، وجد فاجنر وجه صديق .. وكان ذلك رجلا غريب الأطوار في الخمسين يرجع أصله الى مدينة بون الألمانية ويتمثل فى شخصه أولئك العلماء الألمان المغمورون ، فهو فقيه لغوى ، وحجة فى الموسيقى ، وان كان يشغل منصبا متواضعا فى المكتبة الملكية ، ويعيش منذ زمن بعيد فى أبهاء مدينة الكتب الواسعة ، وقد اقتل فى نفسه كل طموح وهجر كل حلم وكل وهم ، وصار يعيش فى زهد فلسفى ، كأنه فراشة تعبر الليل في صمت الحكماء .. صديق لم يلبث أن غدا ضيفا دائما على « مائدة » آل فاجنر التى لا يكفى طعامها رجلا واحدا ، ولا يكاد الكلب « روبر » ينال من فتاتها شيئا ، الى أن غلب

الجوع على الوفاء فغادر الكلب البيت غير آسف وترك المائدة الهزيلة لصاحبيها وضيفهما ! .. وشاعت الحكاية فأعلن جماعة من ألمان باريس الذين يرجع بهم أصلهم الى مدينة ليبزج أنهم منحوا رتشارد فاجنر معاشا شهريا .. وذات يوم اقتحم ڤاجنر مكتب الناشر شلسنجر صاحب المجلة الموسيقية ، وناشر أعمال « شوپان » و « ليست » وغيرهما ، فألقى الناشر الكبير نظرة سريعة على المؤلفات التى حملها اليه هذا الموسيقى المجهول ، ثم رفع رأسه وطلب — كضمان للنشر — خمسين فرنكا ! .. ولابد أنه قرأ فى ملامح زائره أن لو كان معه هذا المبلغ ما قصد اليه ، فعاد يعرض عليه أن يكون الضمان بضع مقالات أدبية لمجلته !

وعاد ڤاجنر الى البيت « وصنع من نفسه كاتبا » على حد قوله !

كان يكتب بالألمانية ثم يبحث عن ناقل الى الفرنسية ، ومع ذلك لقيت تلك المقالات نجاحا ملحوظا ، وكانت عناوينها تدل عليها :

« فى الموسيقى الألمانيـــة »

« زيارة لبتهـــوفن »

« موسيقى ألمانى فى باريس »

وفى مقدمة « زيارة لبتهوفن » نجد كل ما كانت تقطر به نفسه من مرارة ، اذ ترتفع هذه الصرخة :

« أيتها الفاقة الخشنة ، أيها الفقر ! أيها الرفيق المألوف للفنان ، اليك أهدى — بكتابة هذه الذكريات الورعة — هذه الصلاة الأولى .. » وقد تخيل ڤاجنر تلك الزيارة الوهمية الرمزية ، اذ أنه لم يتح له فى الواقع أن يرى العبقرى الأصم الجليل ، لكنه صور حياة بتهوفن ووضع على لسانه ايمانه هو بضرورة جمع الصوت الانسانى بالآلات للحصول على قمة الاكتمال الموسيقى .. وكأنما كان ڤاجنر اذ يكتب عن بتهوفن يتسنم تلك الصخرة العالية التى يتعلم الفنان من فوقها كيف ينظر دون أن يعتريه الدوار الى مغريات الحياة ، فلا يبيع فنه ولا يدنس نفســـه ولا يتضعضع ايمانه ولا يتملق أحدا ، لا المتنطعين ولا المتسلطين .. ولم يعد يرحم نفسه أو يرحم صاحبته التى صارت الى زمان تمسح فيه الأرض وتطهو الطعام لسيدتين ألمانيتين نزل لهما آل ڤاجنر عن القسـم الأكبر من مسكنهما .. ولم يعد له هو غير كرسى واحد يديره الى المكتب أو الى المائدة وفقا لساعات العمل أو الأكل !

وفى كل أربعة أيام يخرج الى الهـــواء الطلق مرة يصحبه صديقه الزاهد أو صاحباه الجديدان ، وهما رسامان بوهيميان ، وكان أحدهما « ارنست كيتز » طفلا كبيرا متوحشا من النوع النادر الذى لم تعـد الدنيا تتسع له ! .. كان رساما لا يكاد يمسك الفرشاة ، ولم يتلق من التعليم الا أقله ، ويزعم أن عمر الفنان أقصر من أن يتسع لتلقى أصول الفن والانتاج معا ! .. ومع ذلك فقد أوتى الشجاعة على أن يتم صورة لفاجنر فى ثوب الغرفة ، ولعل ما أعانه على ذلك أنه صار يقضى الجانب الأكبر من حياته فى بيت آل فاجنر ، كى يسرى عن « مينا » الصابرة .. ويزعم بعض المؤرخين أن « كيتز » قد استطاع كذلك أن يتم صـــورة لصاحب البيت الذى يقع فيه مسكنه المهجور ، وفاء بأجر المسكن ! .. وأولئك الألمان الثلاثة ، الزاهد والبوهيميان ، كانوا بلا ريب أول الفاجنريين فى العـــالم ..

وعلى حين كان الشاعر الألمانى « هنرى هاينى » يسهر كل ليـلة فى مطعم « بروتشي » الايطالى المواجه لدار الأوبرا ، كأنه واسطة عقد بين أولئك المهاجرين الألمان اللامعين الذين يلتفون حوله ، وهو يومئذ فى أوج نجاحه والناس يقرأون له فى فرنسا والمانيا وهو يحيا فى بذخ علنى ، كان الموسيقى الألمانى « رتشارد فاجنر » يسجل في دفتر يومياته « هذا الشاهد الصامت على بؤسه » صورة تلك الأيام الباريسية عنده :

٢٣ يونية (١٨٤٠) :

منذ قليل ظفرت الى عينى الدموع مرة أخرى . أقبل على بيتى عامل ألمانى مريض فدعوته أن يعود ليتناول معنا طعام الفداء . لكن مينا نبهتنى الى أن ذلك سيضطرها الى انفاق آخر مواردنا فى شراء الخبز . أيتها المسكينة ! انك لعلى حق ، وان حالنا لسيىء ، فانى عنـدما أفكر فيه لا أرى الا أقصى ما يتصوره المرء من بؤس .. ان من العار أن يكون أقصى أملى منذ اليوم فى الاعتماد على الصدقات ..

٢٩ يونيـــة :

أجهل ما ستكون عليه حالتنا فى الشهر القادم ..
لم أعد أملك غير ٢٥ فرنكا .

ما زلت أخفى عن امراتى المسكينة الى أى حد تسير حالتنا من سيىء الى أسوأ ، لكنى فى يوم ١٥ التالى (يوم دفع ايجار المسكن) لن أتمكن من كتمان سرى عنها ..

وفى تلك الظروف القاسية أتم أوبرا « رينزى » التى يعتبرها أكثر النقاد أوسع أوبراته التى ستكسبه المجد وينشر ظله فى تاريخ الموسيقى على رقعة واسعة من الزمان ، فعندما مات فى سنة ١٨٨٣ كانت قائمة الكتب التى وضعت عنه تزيد على عشرة آلاف مجلد ، ولعل « المكتبة الفاجنرية » قد بلغت اليوم ثلاثة أمثال هذا الرقم !

وكتبت « مينا » الشقية الصابرة الى الشاعر « تيودور أبيـــل » تتوسل اليه « جاثية على ركبتيها » أن يمد يده لانقاذ صديقه الموسيقى التعس ، زوجها ، لأنه في صباح ذلك اليوم ــ ٢٨ أكتوبر ــ قد قبض عليه لعجزه عن سداد ديونه ، وهو الآن فى السجن !

اما أوبرا « رينزى » فقد بعث بها الى أصدقائه القدامى فى درسدن والى ملك سكسونيا وغيرهم بلا جدوى .. فتحرك الشاعر الأعمى وبعث بالمال المنشود ، وأطلق سراح فاجنر وعاد الى بيته والى مشكلة الخبز اليـــــومى ..

وفى نهاية ذلك الخريف المفجع وقع له حادث مثير ، فقد خــرج ليتمشى فى ضباب الفجر الكثيف وكأنه قبة مضروبة على المدينة ، فلم يكد يمضى خطوات حتى برز من الضباب شبح كلب ضخم ، وعرف كل منهما صاحبه القديم ، فوقفا لحظات قصيرة وجها لوجه ، ثم اندفع الانسان نحو صديق الماضى وقد فتح ذراعيه ومدهما .. لكن « روبر » تراجع وانطلق يعدو .. وجرى الانسان خلفه .. وكان الكلب يتريث عند زوايا الشوارع ويتلفت ، فاذا ما بزغ الرجل من غيابة الضباب انطلق يعدو من جديد .. وطالت هذه المطاردة العجيبة فى جوف الضباب قبل أن يختفى الكلب عن عين صاحبه الى الأبد .. وعاد فاجنر الى البيت ليكتب مقالا حزينا بعنوان : « نهاية موسيقى فى باريس » ويصور فيه احتضار موسيقى ألمانى هزمته المدينة القاسية وقتلته ضيعة أحلامه، فهو يلقى بتعاليم ايمانه قبل أن يلفظ نفسه الأخير :

« أومن بالله وبموزار وبتهوفن وتلاميـــذهما وحوارييهمـــا ، وبفن

موحد لا يقبل التجزئة ، واومن بأن هذا الفن يصدر عن الله ويعيش في قلوب جميع الرجال المستنيرين ، اومن بأن جميع الناس يستطيعون ان يسعدوا عن طريق هذا الفن ، وبأن من حق كل انسان أن يموت جوعا هو يعترف به .. » .

وافتتح سنة ١٨٤١ بفشل جديد شهدته قاعة الموسيقى الخاصة بالمجلة الموسيقية ، فقد عزفت له فيها « افتتاحية كريستوف كولومب » عزفا رديئا قابله الجمهور بالسخط والصفير ، كأنما ارادت باريس أن تعلمه حتى النهاية مأساة الخبز اليومى وأن تمنحه ذلك الترفع الساخر الذى يشحذ الذكاء ويلهب العزيمة .

ووقف أصدقاؤه يوصونه بالصبر وينفخون في ايمانه بفنه ، ووقف هو اكثر من مرة امام البقال يرجوه أن يصبر على حقه أمدا جديدا !.. وفى هذه المحنة بدأ يعمل فى ذروة هندسته الموسيقية والشاعرية : « الهولاندى الطائر » .... كتب أشعارها فى عشرة أيام ، واتم موسيقاها فى سبعة أسابيع .. وعندما تمت له لم يسعه الا أن يوقعها بهذه الصرخة : .

« فى الليل والبؤس — رتشارد ڤاجنر »

وفجاة جاء البشير بقبول « ريتزى » فى درسدن مع وعد بعرضها فى الشتاء التالى على مسرحها .. ويقول ڤاجنر عن نفسه في تلك الأيام : « ان حذائه الأخضر الذى كانت زوجته قد أهدته اياه فى عيد ميلاده الماضى قد صار هيكلا بلا نعل ، اذ اختفى النعل تماما كأن لم يكن .. » بل انه ذهب ليعرض نفسه على المشرفين على أوبرا باريس ، ليعمل فى الكورس بأجر ثلاثة فرنكات فى الليلة ، فرفضت باريس أن تمنحه هذه الصدقة ، أو أبت أن يكتب لها عارها !

وقدم اليه صديقه الشيخ المجلد الضخم الذى يضم أسطورتى « تانهويزر » و « لوهنجرين » ففتنه ذلك الجو الأسطورى الذى يشغف روحه ، حتى لقد تغنى ببؤسه وغفر لباريس جحودها : « أيتها الآلام ! انى لاباركك ، لانك انضجت أروع الثمار ! »

ولم تكد أخته « لويز » زوجة الثرى المتعالى « بروكهاوس » تسمع أن مسرح برلين قد تبنى « الهولاندى الطائر » حتى أهدت اخاها المغترب

نفقات العودة الى ألمانيا ؟ وفى الربيع الطلق الضاحك غادر المدينة التى دخلها تحت ستار الضباب ولقى فيها مرارة الفشل وروعة النضج ..
ولم يكن له فيها ما يأسى على فراقه غير عصبة الأصدقاء من أهل البوهيمية والعوز والنبل ، أما « كيتز » الطيب فقد وضع فى جيب صديقه فى لحظة الوداع ، وفي صمت ، قطعة من ذات الخمسة فرنكات ــ الوحيــدة التى كان يملكها ــ لأنه خشى أن تكون بصــاحبه حاجة اليها فى بعض الطريق ! .. وبالعـــودة الى الوطن بدات مراجعات أوبرا « رينزى » فى مسرح درسدن الملكى .. وكان الدور النسائى الأول فى الرواية من نصيب فنانة مقتدرة ، ولم يكن غيرها من الأعوان بأقل منها شعورا بهذه الأعجوبة الطريفة الفاتنة ، حتى أن أحد المغنين فى الفرقة أوقف ڤاجنر ذات يوم فى الشارع وجعل يحدق فيه دون ان يتكلم ، ثم همس كالمأخوذ :
« لقد أردت ان أرى كيف يكون رجل ينتظره كل هذا المجد ! » .

وفى ٢٠ أكتوبر من سنة ١٨٤٢ رفع الستار عن اوبرا « رينزى » وجلس ڤاجنر فى مقصورته مع زوجته « مينا » وأخته « كلارا » وملء نفسه الاحساس بأن في عمله الذى يهتف له الجمهور ضعفا غير خاف وطولا غير مستحب ،وبأن هذه الأوبرا هى الأخرى ستنهار على نفسها كما انهارت مؤلفاته الأولى ، فما يحتمل الناس هذه الموسيقا العنيفة الشامخة ست ساعات متتالية ! .. لكن الستار يسدل على النغم الأخير فتدفعه الأيدى الى المسرح كى يتلقى تحية جمهوره المأخوذ ، هو قرين الحظ السيىء وأخو الفاقة السوداء ، هو من لا يملك شيئا ومن لا يأكل حتى الشبع ، وفى القاعة تلميذ صغير فى العام الثالث عشر من عمـره بلغ من انفعاله أنه فقد حاسة السمع خلال فصـــل كامل ، فأقسم وهــو يتيقظ من ذهوله أن يمشى طوال العمر فى ركاب هذا الساحر العظيم ·· وكان الغـــلام هو :« هانز دى بولوف » الذى كان مقـــدرا له أن يشرب عميق الأحزان من يد الساحر العملاق !

فى تلك الليلة دخل رتشارد فاجنر فراشه رجلا مشهورا ، لكن الاعياء كان قد حل به ، فلم يتنبه الى أن « مينا » الطيبة قد نثرت على فراشه أوراق الغار ..

وهاهم يعرضون عليه الآن منصب الرئيس الأعلى لأوكسترا المسرح الملكى فى درسدن ، فكأنهم يعرضون عليه طوقا من ذهب ! .. وهو يقول

لزوجته ان الفنان الحقيقى ينبغى له أن يظل فى حالة تطور مستمر حتى يموت ، لكنها تهمس فى أذنه فى ظلمة مخدعهما : « اقبل ! ضمان عيشنا أولا ! .. سيكون لنا آخر الأمر بيت ورغد ، وسأكون زوجة فخامة الرئيس ! .. » .

وكان « الهولاندى الطائر » قد فشل فى اثارة اعجاب الجمهور ، فخضع مرة أخرى لالحاح زوجته ، وللأغلال التى مد اليها يديه مرغما ، ودخل من جديد تلك الدائرة الدوارة التى شاء له حظه أن يقضى حياته كلها فى محاولة الخروج منها الى خلاء الحرية الفسيح .. ذلك أن فى نفسه مشابه من « الهولاندى الطائر » ، عابر البحار الخالد الباحث عن خلاصه !

كان لعرض « تانهويزر » فى ١٩ أكتوبر من سنة ١٨٤٥ خيبة أمل جديدة فى « الجمهور » الذى يريد أو يراد له ان يكون طفلا يسعى وراء التسلية ويعرض عن كل فنان يضطره بالفن الى التفكير ، وايقن فاجنر أن امامه أعواما وجهدا قبل أن يتم نضج هذا الجمهور الفج ، وأن عليه أن يخلق هو هذا الجمهور المثالى كما يخلق النبى أتباعه ، فلا يقصر نزعته الاصلاحية على خشبة مسرح الاوبرا الملكى فى درسدن وحدها ، بل يرفع عصا المعلم ويكشف للناس ما يتضمنه « فن التسلية » من خداع وتخدير ، ويرشدهم الى أن اصلاح العالم مرتبط بالقيم العليا للفن ، لأن تلك القيم هى التى ستقود الانسانية بالحب الى خلاصها الكبير ، وهى التى ستوجد الانسان البطل المتفوق ..

في « تانهويزر » استطاعت الموسيقا ، بتآلفها وتقابلها ، ومرجعاتها ، وتحولاتها ، أن تصور زرقة الايمان الصافية وبياض الطهر الناصع ، وحمرة الشهوة ، وروح المأساة ،واصطدمت فيها المسرات الوثنية بسماء الدين ، أما أنغامها التى قدت من صخر الجبال العارية فهى تأخذك بقوة لتعيش مع الشاعر المغامر « تانهويزر » وقد قضى سبع سنوات فى أسر الحب عند فينوس ، سجينا برغبته على قمة جبلها المسحور .. ثم ينبض الملل فى نفسك اذ ينبض الملل فى قلب الشاعر العاشق العربيد من فرط السأم ، فاذا هو قائم يحلم بأرض البشر ويخيل اليه أنه يسمع أجراس مسقط رأسه ، وتهفو نفسه الى التوبة ، أو الموت .. وينتهى صراعه جسدا لجسد مع تلك الآلهة التى لا روح لها الى ساعة قصوى ينفض عن نفسه فيها أغلالها ، واذا بسحر فينوس قد فقد روعته وبطل أثره على الشاعر — وعليك — واذا هو هارب من عالم اللذة الصارخة الى سفوح التلال السعيدة التى تمثل صباه الطاهر .. وعندها يقذف

الى الريح برماد حبه المحترق ، ويتنفس في شوق عبير الأرض التي يعود اليها بعد طول غياب ، ومحيت من ذاكرته مغريات جبل فينوس ، واستبانت له عن بعد القلعة التي شهدت قبل غربته حبه الطاهر .. وغير بعيد منه راع شاب يغني على أرغول ، ومن ورائه نشيد موكب الحجاج الذاهبين لينالوا غفرانا يمحو خطاياهم ، ويبلغ التعبير الموسيقى ذروة الابداع الناصع عندما يقبل سيد القلعة وفرسانه وشعراؤه ، واذ يتعرفون الى صاحبهم القديم وهو يتبعهم صامتا الى القصر ، حيث تنتظر ابنة أخي السيد منذ سبع سنين عودة حبيبها الشاعر .. وتهرع الحبيبة اليه مادة ذراعيها ، ويتبارى الشعراء فى تحديد معنى الحب ، فينبرى أحدهم متغنيا بالحب الطاهر القائم على احترام المحبـــوب وخشية الله ، لكن « تانهويزر » ـ وفى فمه طعم الخطيئة لا يزال ـ يجد نفسه مدفوعا بسحر الماضي الى تمجيد اللذة .. وتنهض جماعة الشعراء للدفاع عن الهوى العنيف ، فى اعجاز موسيقى خلاب ، فيطلق «تانهويزر» في وجوههم صرخة الأسف على اللذات التي ضاعت ، ويعترف فى غير حياء بقصة الجبل ، ويدعو الى اعتناق عقيدة اللذة ، ويمجد فينوس متغنيا بفتنتها .. وهنا تنطلق صيحة استنكار عامة ويندفع الفرسان بسيوفهم نحو الشاعر الرجيم الذى تذوق أفراح جهنم ، لكن الجميلة « اليزابيث » تتصدى لهم قائلة ان من حق الرجل أن يتوب ، ومن واجبهم أن يصلوا من اجله .. وفى هذا الموقف الجليل ـ الذى تعقد فيه الموسيقا فوق الجميع قبة كقبة الكتدرائية ـ يتجلى للشاعر الملعون تبذله ورجسه ، فيسقط على ركبتيه ويقبل فى ندم ثوب القديسة .. كل ما تبقى هو الرغبة في القضاء على نفسه تكفيرا عن خطيئته .. لقد عرف غواية الشهوة فقادته الى الألم ، ها هو الألم يقوده الى الله .. ولكن الله لا يقبل هذه التوبة ، فتعرض اليزابيث النقية على الله حياتها قربانا وفدية .. ويبزغ الفجر وترتفع معه أصوات المواكب البعيدة ممجدة تلك القديسة التى اشترت بحياتها خلاص حبيبها ، ثم ينقشع ضباب الفجر عن موكب جنازة والرجال يحملون جثمان القديسة عند قدمى ذلك الذى افتدته بتضحيتها ، فينحنى فوقها ويلفظ آخر أنفاسه فى تلك اللحظة التى أتاح له فيها عذابه وندمه وتوبته العفو الالهى ، ويشرق فوق جثتيهما نور الايمـــان ...

وثار وجدان فاجنر لفشل هذه التحفة عند الجمهور ، وبينما كانت نفسه محتدمة بالثورة أقبلت من باريس موجة هادرة ، حيث ولدت

الدولة الديمقراطية الجمهورية من ضمير الطبقات المتنورة التائقة الى حرية الفكر والطبقات العاملة المتشوقة الى حرية العمل ، وزعزعت اركان الحكومة القائمة على سلطة الحق الالهى فى الدولة الاقطاعية الكاثوليكية والملكية ، واستطاع الناس البسطاء أن يحلوا الحق الانسانى محل الحق الالهى ... ان الثورة اذن ممكنة !

وبلغت الثورة درسدن فى سنة ١٨٤٨ فبثت الآمال فى صدور تلاميذ وتشارد .فاجنر الذين قادوه الى اجتماعات الوطنيين الأحرار ، واذا بالفنان الذى لم يفكر قبل ذلك في غير الانتاج الموسيقى يعتنق مبدأ الثورة وينقلب داعية لها ، فينشر مقالا ملتهبا يحمل عنوان « جمهورية أم ملكية ؟ » ثم يلقيه بنفسه القاء حماسيا على ثلاثة آلاف ثائر اجتمعوا له فى نادى الوطنيين الأحرار ، وقد هاجم فيه الملك بجرأة وندد بالارستقراطيين والرجعيين ودعا الى منح الشعب حق الانتخاب حتى يتمكن من التشريع لنفسه : « فانه بقدر فقر الانسان يكون حقه فى سن القوانين التى تحميه ... » .

وفى يوم واحد خلع منبر الحرية على الموسيقى بريقا شعبيا لم تمنحه له منصة القيادة الموسيقية خلال الأعوام الطوال !

وتبدت له الحقيقة التى كانت غائبة عنه ، فأدرك أن ايمانه العميق بفنه يحمل حمى الثورة ، وفهم لماذا يرفع بعض الشبان قبعاتهم عندما يمرون أمام بيته .. انهم يحييون الفنان الحر !

وكان فى تلك الفترة الثائرة يضع أوبرا « لوهنجرين » : وهى قصة اله أحب امرأة من البشر ثم دفعته الرغبة فى المعرفة الى القضاء عليها ، لأن الحجب المسدلة على طبيعة الحب لا يمكن كشفها ، وما فى الحب من سحر تزول فتنته بمجرد الاقدام على محاولة تفسيره .. انه ينتظر المرأة التى تؤمن به دون أن تسأله من يكون ومن أين جاء ، وانما تحبه كما هو ، ولأنه هو .. لقد اراد أن يصبح انسانا كاملا يأخذ الحب ويعطيه ، لا الها تسدل بينه وبين الحب أستار القمة الباردة .. انه اله فنان ، يهبط من عزلته الموحشة عندما يسمع وسط البشر دعاء ذلك القلب المعذب ، يريد ان يحب ويعيش ويهب نفسه .. أليس ذلك هو فاجنر نفسه ، بكل ما فيه من شوق الى شمس الحب الدافئة وتشوق الى ثورة عاطفية تشبع هوى عبقريته ، وثورة فنية تفرض على الجامدين

فنه ، وثورة عامة فى حياة الانسان كلها تكشف له وللناس جميعا عن وسيلة لحل مشاكله الاجتماعية والاقتصادية المتفاقمة ومشاكل الملايين من المعذبين في سبيل الرزق والقوت ؟

وبدأ فى الحال يتلقى صدى موقفه الثورى .. اخذت أبواق الملكيين تنهش سيرته فى الصحف والمجتمعات ، وأوقف المسرح الملكى عرض أوبراته ، بل دعاه قائد الحرس الوطنى الى المبارزة ! .. وكان تلميذه « روكيل » قد خرج من السجن ليصدر صحيفة ثورية تنطق باسم الشعب وتفسر له المذهب الاشتراكى ، وقد تعرف ڤاجنر فى مكتب الصحيفة ذات مساء بشاب ملتح يرد بيده عن عينيه المريضتين نور المصباح .. ولم يكن « الدكتور شوارتز » هذا الا اسما مستعارا تختفى وراءه شخصية أشهر ثائر فى أوربا : ميشيل باكونين ... رجل لا جنسية له ولا وطن ، يحلم بعالم جديد يقوم على سعير النيران واطلال الخرائب ، ويتكلم كل اللغات وان تكن لغته التى يؤثرها وينام فى حضنها هى لغة الثورة .. وكان ذلك الثائر الفوضوى الذى تفتنه فكرة القضاء على العالم وبنائه من جديد هو الذى بعث الشرارة الأولى فى ثورة درسدن التى شارك فيها فاجنر بالخطابة والكتابة وتوزيع المنشورات ، والتى رأى فيها كل عجيب ومثير .. رأى الجنود وهم يسلبون دم الشعب ، وصعد الى قمة برج الكنيسة واشرف منه على ساحة القتال بين الثوار وجنود الملك البروسيين ، وكان عليه لكى يبلغ بيت الله ويعتلى هامته أن يعبر الميدان تحت وابل منهمر من نيران الجنود المصطفين أمام القصر : « وكان أمرا عجيبا أن تنتابنى تلك الرغبة الملحة فى أن اعبر الميدان على مهل ، واثقا من قدرى ! » .

ولم تعد دار الأوبرا نفسها غير بحر من اللهب ، ونقعت المدينة فى دم البشر الأحمر الغالى ، واحتدم القتال من بيت الى بيت ، وتنادى الثوار من وراء المتاريس بالصمود والفداء ، وشبح باكونين الرهيب بين الأطلال يقترح نسف دار الحكومة بمن فيها من الوزراء ، ثم كانت الغلبة آخر الأمر لليد الباطشة ، وقبض الجنود على زعماء الثورة وفى طليعتهم باكونين نفسه ، وهرب فاجنر الى امارة فيمار حيث نزل ضيفا على صديقه الكبير « فرانز ليست » ... وهناك بلغه نبأ صدور الأمر بالقبض عليه « لمساهمته الفعلية فى ثورة درسدن » ....

هو ذا يفقد مرة أخرى عمله ويرجع الى عالم التجوال الشريد !

هو ذا مرة اخرى يترك زوجته ويرحل وحده الى باريس التى يحمل لها ذكرى خيبة الرجاء وعضة البؤس !

وهو يكتب منها الى صديقه « ليست » من رسالة طويلة :

« أما الثورة فقد ماتت ، وأما المثل العليا فقد دفنت ، وأما باريس الفظيعة فلم يبق فيها من الفن غير حطام !.. » .

فجاءه الرد فى صورة مبلغ من المال يكفى لعودته الى زيوريخ .. وهناك كتب فاجنر رسالته المعروفة عن « الفن والثورة » التى عبر فيها عن ايمانه بالثورة : « لا سبيل الا أعمال فنية جديدة تولد على أطلال الفن الكاذب ! » .

وفى بيت على شاطىء بحيرة زيوريخ أسماه « فيللا رينزى » أقام يعمل فى مؤلفاته الجديدة وهو معرض عن زوجته التى لم يبق من حبه لها الا رغبة خالصة فى تعويضها عن شبابها الذى ضاع وعن البؤس الذى حملته معه صابرة ...

ثم عاد مرة اخرى الى عمل رسمى عندما قبل مهمة الاشراف على الفرقة الموسيقية لمسرح زيوريخ ، وأعانه فى عمله الجديد تلميذه الوفى « هانزدى بولوف » ، ذلك المريد الخالص الذى هجر أسرته ودراسته خضوعا لأمر الاستاذ ورحل من بلده الى زيوريخ مشيا على قدميه تحت المطر والليل ...

وكان فاجنر قد بدأ يحلم ببرنامج فنى عظيم يقوم على أربع أوبرات جديدة تلخص فنه وتفسره : « ذهب الراين » و « الفالكورة » و « سيجفريد » و « أفول الآلهة » ... وكتب اليه « ليست » يستحثه فى نبل : « اين لنا يا صديقى هذا المعبد الذى ستقول عنه الأجيال القادمة انه أعظم كتدرائية خلفها عصرنا ! » .

وفى تلك الفترة من حياته تعرف الى ابنتى صديقه « فرانز ليست » وهما : « بلاندين » و « كوزيما » .. وكتب أول أعماله الأربعة الجديدة « ذهب الراين » بريشة من ذهب جائته هدية من زوجة تاجر حرير المانى غنى فى زيوريخ هى « ماتيلدة فيسندونك » ، وكانت من أشهر « الفاجنريات » ، وقد تسللت الى قلبه كالعطر الغامض ، وكان زوجها قد بنى بيته على التل الأخضر المشرف على البحيرة كما بنى فاجنر بيته الجديد على الجانب الآخر من الطريق ... وكانت « مينا » زوجته

و « أوتو » زوج المرأة المعجبة قد أدركا فى صمت حكاية الهوى الناشب بين رتشارد وماتيلدة ، وشهد التل الأخضر قلوبا بين ماضيها وحاضرها وآتيها رباط وثيق : فقد أقبلَ — أيضا « هانزدى بولف » فى رحلة شهر العسل مع عروسه « كوزيما » ابنة « فرانز ليست » كى يقدمها مرة أخرى الى « الاستاذ » ، وبذلك اجتمعت فى ليلة واحدة ثلاث نساء هن ماضى رتشارد فاجنر وحاضره ومستقبله :

« مينا » صورة الماضى وصداه !

و « ماتيلدة » صورة الحاضر التى « وهبت نفسها للموت لتهبه الحياة ! » .

و « كوزيما » التى كتب عليها أن ينتزعها ذات يوم من أقرب الناس الى قلبه : أبيها وزوجها !

ولم تكد « كوزيما » وزوجها يرحلان حتى ضبطت « مينا » رسالة من زوجها الى « ماتيلدة » وقرأتها ، فعبرت الطريق الى بيت غريمتها وقالت لها :

لو كنت امرأة سوقية لأطلعت زوجك على هذه الرسالة !

لكن المرأة العاشقة صرفتها في هدوء ثم ذهبت هى الى زوجها فروت له الحادث ، وكانت تعلم أنه رجل واسع الصدر ينتظر اللحظة التى تعود اليه فيها زوجته تائبة ، فحملها الى رحلة بعيدة ، وبعث فاجنر بزوجته الى محلة من محلات الاستشفاء لتسترد فيها هدوء أعصابها ، ورحل هو وحيدا الى البندقية . .

وهناك كتب « تريستان وايزولده » التى تنبعث من أعماق التشاؤم فى موسيقاها نبضة رجاء لا تريد أن تموت !

لقد تسلل البياض الى شعره ، وفى نفسه الآن هاتف يدعوه الى مسرات « الوطن الداخلى » الهادئة ، والى التفرغ للابداع وحده ....

— ٤ —

قيل له ان فى باريس — الآن — افنانين وقلوبا تنتظره ، وأن « تيوفيل جوتييه » و « شارل بودلير » قد قاما بتفسير فنه الرفيع للجمهور الباريسى ، فعاد اليها ومعه فنه ونبضة الرجاء الذى لا يموت ، وفى ١٣ مارس من سنة ١٨٦١ وبعد ١٦٤ مراجعة ، رفع الستار عن أوبرا « تانهويزر » امام جمهور متوتر الأعصاب يضم الأصدقاء والخصوم .. وساد الصمت فترة قصيرة ثم ارتفعت فى القاعة همهمة مريبة ، فالتفت فاجنر فى حركة عصبية حاسبا أن الامبراطور قد وصل ، لكن المؤامرة كانت هى التى وصلت ! .. وظلت المقاطعة تتكرر طيلة الفصل الأول ، فى المواضع الحساسة المبتكرة ، وضاق الجمهور بهذه المقاطعة المدبرة ، وكاد الخصوم والأنصار يشتبكون في معركة بالأيدى .. ثم عاد الهدوء خلال الفصل الثانى ، ولكن دخول البطل فى الفصل الثالث قوبل بصيحة عابثة من أحد المتآمرين ، فانفجرت القاعة كلها بالضحك ، فكانت السقطة البشعة البلهاء ..

وكان فاجنر من الشجاعة بحيث أصر على عرض الأوبرا نفسها فى الليلة التالية ؛ وقد قوبل الفصل الأول بتصفيق عظيم ، فاعتقد المؤلف وأصدقاؤه أنهم غلبوا وضاعة الحاقدين ، واذا بسيل من الصفير ينفجر فجاة ، وكان مصدره أعضاء نادى « الجوكى » — أكبر ناد أرستقراطى فى فرنسا — الذين لم يجدوا غير هذه الطريقة السوقية للتعبير عن رقاعتهم وجهلهم وللاحتجاج على رواية لا ترقص فيها عشيقاتهم ! .. وصاح بعض الحاضرين مطالبا باخراج هؤلاء السادة السخفاء من المكان ، لكن الامبراطور نفسه جبن عن ابداء استهجانه لفعلة أولئك الذين ينتمى معظمهم الى البيت الامبراطورى وتوابعه .. واستمر الصياح المنكر ، فقذف الممثل الأول بقبعته على الصفوف الأولى ، كما لو كان يرمى بقفاز التحدى ، ثم

انحنى تجاه المقصورة الامبراطورية ولفظ بكلمات لم يسمعها احد .. وسادت لحظة سكون ، ثم انطلقت العاصـــفة وعمت الفوضى ، وبكى « بولوف » من قهر وغيظ ، وفقد « كيتز » صوته بعد أن أوسع المتآمرين سبا ، وارتجفت « مينا » خوفا .. ورأى ڤاجنر التفاهة كلهـــا رأى العين والقلب !

أما العرض الثالث والأخير فكان أعنف هذه « المعارك » الثلاث : فقد أقبل اعضاء نادى « الچوكى » فى هذه المرة مزودين بصفارات صغيرة من الفضة حفروا عليها شعارهم : « من أجل تانهويزر » !.. وكذلك جاء أنصار المؤلف وأصدقاؤه كالبنيان المرصوص ، فكانت معركة فظيعة لم يشهدها ڤاجنر نفسه ، فقد بقى فى بيته يحتسى الشاى ويمضغ نقمته !

وهذه الفضائح الثــلاث كلفت الأوبرا ٢٥٠٫٠٠٠ فرنك ، وكان كل نصيب ڤاجنر من دخلها ٧٥٠ فرنكا !

ولقد صاح فنان باريسى كبير على أثر المعركة الثالثة من معـــارك « تانهويزر » المشينة :

ــ ليهبنى الله مثل هذا السقوط !

وبعد ثلاثة أسابيع من هذه الهزيمة التى يحسد عليها صاحبها نشر « بودلير » كتيبه عن « تانهويزر فى باريس » وهو تحية صادقة يوجهها مؤلف « أزهار الشر » الى ڤاجنر ، ويتنبأ له فيها بأن المستقبل سيثأر له من هذه الاهانة .. ولم تلبث « ڤيينا » الذواقة المرهفة ان صفعت هى الأخرى باريس اذا أحسنت لقاء « لوهنجرين » ومجدت خالقها !

وكانت ألمانيا قد فتحت له أبوابها بعد صدور العفو عنه ، فعاد الى وطنه بعد غيبة دامت عشر سنين .

وعلى ضفاف الراين ، وقد جاوز هذا الكهل العملاق الخمسين ، زاره « بولوف » وزوجته « كوزيما » التى تصغر ڤاجنر بخمس وعشرين سنة ، لكنها تنظر فى عينيه فتدرك أن المأوى الذى يبحث عنه هذا الشريد المعذب لا يوجد فى وطن من الأوطان ولا فى مدينة من المدن ولا فى مكان من العالم الا قلبها .. ان قلبها هو الوطن الذى قضى هذا الرجل خمسين عاما من حياته فى البحث عنه ..

كان مشهورا ، وكان قمة ، وكان ضائعا ومسكينا .. وكان أثاث بيته الجديد فى ضواحى ڤيينا قد بيع أيضا للوفاء بجانب من ديونه .. انما هو فى حاجة قبل كل شىء الى دفء القلب !

وعندما دخل رسول ملك باڤاريا عليه ليسلمه رسالة من مولاه الملك الشاب الذى لم يكن مثله ملك فى الزمان ، علم ڤاجنر أن كوزيما هى التى سعت سعيها لدى الملك المخبول ليمد اليه يد العون ، فانتفضت الدموع فى عينيه وانطلقت من بين شفتيه هذه النفثة التى تعطف عليه قلب كل فنان تطحنه قسوة العيش وجهالة الناس :

« ان العالم مدين لى بما انا فى حاجة اليه من الجمال والنور .. أليس من حقى أن أطلب بعض فتات الترف التى تتوق اليهـا نفسى ، أنا الذى أصنع لآلاف الناس هذه المسرة ؟ » .

ولقد كانت الأعوام الأخيرة من حياته مسرحا يتقاسم البطولة عليه ملك وامرأة : أما الملك فهو « لويس الثانى » ملك بافاريا الذى رزق جمال الآلهة وخيال الشعراء ، والذى نزل أبوه عن العرش بسبب راقصة ، فقد بدا له أن يجعل من سلطانه عونا للموسيقى الشقى العظيم ، فقربه اليه ، وقال له وهو يضمه الى صدره : « لقد كنت دون أن تدرى منبع هنائى وأعظم أساتذتى ، ومن حقك على أن أبذل كل ما يدخل فى وسعى كى أعوضك عما عانيت من آلام ، ولسوف أمنحك الأمن والرغد ، لتمنح الدنيا روائع عبقريتك .. » .

وأنزل الملك اليافع صديقه الفنان الشيخ في بيت قريب من قصره ، وجعل يزوره كل مساء أو يبعث اليه من يدعوه الى القصر ، وفتح العبقرى المجهد عينيه على عالم مسحور ، وقد سددت عنه ديونه ودانت له الدنيا، فرغبته أمر وحلمه حقيقة .. ويكتب الى صديقه « بولوف » يدعوه هو وزوجته « كوزيما » الى زيارته فى هذا النعيم ، فتقبل هى مع أطفالها ، ثم يلحق بها زوجها .. وعند ذاك يتوارى الملك قليلا من فوق المسرح ، وتظهر تلك التى رضيت أن تشترى بطمأنينتها وسمعتها تلك الروح الكبيرة الهائمة .. ولم تكن تجهل أن المجتمع سيلومها وانها ستحرم من أطفالها وأن بينها وبين ڤاجنر من فارق السن والمذهب الدينى ما يجعل من مستقبلها معه شيئا غامضا على عذوبته ، غريبا على لذته .. ولم تكن تحب زوجها ، لكنها مشفقة أعمق الشفقة وأصدقها على ذلك الزوج العليل الذى يجمع الى نبل الروح وذكاء القلب ضعف الشخصية وهالة العبقرية .. ثم ان رتشارد ڤاجنر نفسه ـ صديق أبيها وزوجها ـ لم يبذل أى جهد لدفع هذا الحب الشاب عن نفسه .. لقد تفتحت شهيته للحياة والاستمتاع ، وتألقت قدرته على الاقناع ، فلم يلبث زوج «كوزيما»

أن قبل الاقامة فى ميونيخ ، قريبا من بيت ڤاجنر ، ولم يلبث الملك أن وضع « بولوف » على رأس أوركسترا المسرح الملكى الذى كان يتأهب لعرض آخر أعمال ڤاجنر عهدا بالحياة : « تريستان وايزولدة » .. وفى ١٢ أبريل من سنة ١٨٦٥ وضعت « كوزيما » طفلة سميت « ايزولدة » .. طفلة خرجت من صلب رجل غير الرجل الذى تحمل أمها اسمه ! ..

وفى ١٠ يونية استمع أهل ميونيخ ، من رعايا الملك الجميل المخبول، الى « تريستان وايزولدة » دون أن يعلموا أن الكثيرين منهم سيحملون معهم الى قبورهم ذلك النغم المتشائم المنسجم ، يوم يلقون مصارعهم فى الصيف القريب خلال الحرب القصيرة التى ستنتزع فيها بروسيا المنتصرة ثلاث مقاطعات من بافاريا ، وتزلزل فى نفس الملك لويس المجنون ثقته الساذجة بقداسة تاجه !

وفى طوفان الرغد والنجاح ، بدأ ڤاجنر يفكر فى اخراج حلم من أحلامه القديمة الى عالم الوجود ، بل هو صرح يضم ثلاثة أحلام : المعبد ، والبيت ، والمقبرة .. ولم يكد الملك المجنون يسمح بهذه الفكرة حتى أعلن عزمه على أن يجعل من هذا الحلم الفاجنرى حقيقة من الجرانيت .. وكان الملك مخلصا فيما أعلن ، فهو يحب أن يساهم فى انشاء المسرح الذى يحلم به صفيه العظيم ليجعل منه معبدا للفنون ، وهو يعلم أن ڤاجنر يتوق أيضا الى تشييد بيت يضع طرازه بنفسه ، والى اقامة قبر فى حديقة البيت يكون أول ما يقع عليه بصره كل صباح .. لكن رجال الدولة الذين هالتهم النفقة أخذوا يصورون هذا الموسيقى للشعب فى صورة خطر عام ، بأفكاره وبنفقاته ، بل قيل انه يشكل حزبا ثوريا بمال الملك والدولة ! .. ولم تلبث هذه العاصفة أن دخلت على الملك المسكين قصره ، وخيره وزراؤه بين « حب شعبه » أو صداقة ذلك الرجل الفظيع ! .. وهكذا تلقى ڤاجنر رسالة من صديقه الملك المغلوب على أمره يعلن اليه فيها خضوعه لرأى وزرائه .. فطلع فجر اليوم العاشر من ديسمبر ليشهد ڤاجنر وكلبه العجوز « بوهل » وهما يغادران ميونيخ التى خيل للفنان المتعب عندما بلغها منذ ثمانية عشر شهرا أنها آخر مرفأ يرسو به سفين حياته !

وعاد الى المغامرة بين مدن سويسرا وفرنسا ، دون أن يتحول حلمه الى حقيقة من الجرانيت .. وفى مرسيليا بلغه نبأ وفاة « مينا » شريكة حياته المهجورة .. وفى سويسرا رأى بالقرب من لوسرن ركنا على شاطىء بحيرة ، فقال لصاحبته « كوزيما » التى لحقت به :

ــ لن يخرجنى أحد بعد اليوم من هذا المكان !

وكان اسم هذا الركن الهادىء الجميل «تريشسين» .. وهناك سيحدث فى نفس رتشارد ڤاجنر أكبر تحول باطنى في حياته ، هو الذى كان فى يوم من الأيام ثائرا فى ألمانيا وموحدها وصانع امبراطوريتها الجديدة كما أنه هو ڤاجنر صانع الفن الألمانى الحديث ؟

ورأيه الآن اذن هو أن بسمارك وڤاجنر هما مولد المانيا الجديدة العظيمة التى ستلعب على مسرح التاريخ دورها الكبير !

وعاد يقرأ شوبنهور ويشرح مذهبه لصاحبته التى كانت تصغى الى كلام معبودها المقدس بايمان مطلق ، فى الطابق الأول من الصومعة ، بينما يعيش زوجها فى الطابق العلوى !

ويا عجبا له ، هانز دى بولوف هذا !

كان يعلم ما بين زوجته وأستاذه ، لكنه كان هو الآخر كالمسحور أمام عينى الثعبان المقدس ، يلبى دعوته ، ويقيم فى بيته ، ويستمع فى اكبار الى حديثه وموسيقاه ، ويعجب به ، ويكرهه ، ولو سئل أن يهب حياته ثمنا لاكتمال مؤلفاته الجديدة لفعل راضيا !

انه يعرف الآن ان ڤاجنر لم يعد يستطيع أن يعيش أو يعمل بدون كوزيما ، وقد أزفت الساعة التى يجب عليه فيها ان يطالب بزوجته أو ينزل عنها للرجل الآخر قربانا على مذبح الفن !

ذلك أن الصحف كانت قد بدأت تلغط بالقصة وتلوك سيرة ابنة « فرانز ليست » التى تخون زوجها على عينه وتسهر الليل فى تدوين ما يمليه عليها أستاذها المحبوب من تاريخ حياته ، كما كان الناس يومئون الى زوجها في الشوارع ويتحدثون بأن كل ما يفعله اذا تمرد على معبوده هو أن يهجر الصومعة هائما على وجهه فى المدينة أو فى مدينة أخرى !

أما المرأة نفسها فهى يومذاك فى أوج عاطفتها ، قد سكنت نفسها الى عشرة سيد حياتها ونزلت راضية عن عطف الملك وحب الزوج وحنان الأب ، وها هى تضع ابنتها الرابعة (الثانية من ڤاجنر) وهى تجمع أنوثتها كلها وترفعها للفن بخورا وصلوات !

وجاء أبوها بنفسه ليرى فى ابنته وزميليه فى الفن رأيا ، جاء وفى نفسه غضب ، ولم يكن الصديقان الكبيران قد التقيا منذ أعوام ثلاثة ، لكنه ما أن

دخل الصومعة واستمع الى آخر أعمال ڤاجنر حتى ذاب غضبه في الموسيقا ونسي حكاية ابنته وعاد من « تربشين » منتشيا يحدث الناس بما شهد وسمع : « رأيت نابليون في سنت هيلانة ، وسمعت موسيقا كأنها جبال من الماس ! » .

وفى ٢١ يونيه من سنة ١٨٦٧ ارتفع الستار عن أوبرا « مايستر سنجر » التى صور فيها ڤاجنر مذهبه الموسيقى والسياسى وتحوله من ثائر الى امبراطورى ، فى فن المانى خالص ، كأن صاحبه يريد أن يقول ان رجل الثورة قد مات ، وحل فى مكانه رجل المانيا ..

أما كوزيما التى لم يوجه اليها أبوها عندما جاء كلمة لوم واحدة فقد تركت لزوجها ابنتيه وودعته لتكرس لحبيبها حياتها وتمنحه السلام والحنان ، وتوارى « هانز دى بولوف » من وجود الحبيبين ، امعانا منه فى الاخلاص لأستاذه وجلاده .. وكان عمر كوزيما يومذاك احدى وثلاثون سنة ، وعمر ڤاجنر خمس وخمسون سنة .. صارت حارسة حياته ، تحمل عنه كل سخافات الحياة اليومية ، وتتولى بنفسها الرد على رسائله، وتوقع العقود باسمه مع المسارح ودور النشر . فلما حملت منه مرة ثالثة كتبت فى مذكراتها صفحة تحدثت فيها الى نفسها عن المخلوق الجديد الذى يعيش فى أحشائها : « انى اباركه داعية له أن يكون فكره نيرا وصافيا كهذه الليلة ، عميقا ومطمئنا كهذه البحيرة ، وأن يحب أمه التى حملته حبا على حب .. » .

وجاء الطفل الثالث من ڤاجنر « سيجفريد » فكتب اليها ذلك الذى لم يعد زوجها الا بالاسم ، ردا على رسائلها التى طالبته فيها بالطلاق ، رسالة يقول لها فيها : لست أوجه اليك لوما .. لقد كان قلبك وصداقتك وصبرك وعطفك وتشجيعك ونصائحك ، وقبل كل شىء نظرتك وكلماتك ، هى العمد التى تقوم عليها حياتى .. وان فقد هذه النعم الغالية التى لم أقدر قيمتها الا بعد فقدها ليحطمنى كانسان وكفنان .. ولست أسعى بهذه الشكوى الى ايلامك ـ لكنى انا اتألم ـ ولا اتهم الا نفسى .. لقد آثرت أن تكرسى حياتك وكنوز عقلك وقلبك لرجل أرقى وأسمى ، ولست بلائمك على مسلكك ، بل انى أقرك على ما صنعت .. وليس يدخل العزاء على قلبى وينير ظلماتى ويخفف من عذابى الا علمى أن كوزيما سعيدة ..

انه ، هو أيضا ، من ذلك الرهط الذى يصنع من عذاباته مادة عيشه !

— ٥ —

نحن الآن فى شهر مايو من سنة ١٨٧٢ وقد اقبل المدعوون الى مدينة « بايرويت » فامتلأت بمشاهير الفنانين وشهيرات النساء واصـــدقاء الأستاذ .. والجموع ، تحت سماء ممطرة ، ملتفة بذلك الشيخ الساكن النفس اذ يرسى الزاوية في مشروعه الضخم ، وهو يدعو دعاءه :

« كن مباركا أيها الحجر ، »

« وابق قويا صابا على الزمان ! »

لقد بدأ العمل فى الأكروبول الفاجنرى ، واخذ هو فى استعداده للعهد الجديد ، يبحث عن معاونيه فى المسرح ويجمع الوثائق ويتم اثره الجديد « أفول الآلهة » ويعيش فى حمى غير طبيعية نفذت الى أعماق سرها بصيرة صديقة نيتشه .. لقد أزاح نيتشه الستار عن السر الفاجنرى .. ولقد كان نيتشه يوم طرق باب صومعة « تربشين » شابا المانيا فى الخامسة والعشرين واستاذا للفلسفة بجامعة « بال » ، ومن يومها ربطتهما صداقة قوية : كان اجتماعهما فى حقيقته لقاء رجلين احدهما فى مستهل حياته الذهنية والثانى يوشك أن يبلغ الغاية من نضجه ، ومع ذلك يجـــدان نفسيهما عند نقطة الاتصال التى لا يزال الجيل الجديد عندها يفهم عن الجيل الذاهب ، ثم لا يلبث أن يتنكر له ويدير له ظهره ! .. هذا شيخ دان له المجد بعد كفاح ، فهو يعيش بماضيه ، وذاك نجم جديد طالع على الافق فهو يعيش بمستقبله .. فاجنر أسمع الدنيا وصور لها نفسه ، ومنحها تشاؤمه الزاخر بالرحمة ، ونيتشه محارب جديد لم تهزمه الحياة بعد ، فهو يتحفز للكشف عن آرائه ، وهو يعلم أنه موهوب بقوة طاغية سيضعها فى خدمة افكاره الخاصة ويستخدمها فى التحطيم .. ونظر كل منهما فى صاحبه يتأمله مليا ، وكأنهما ساكنا كوكبين متباعدين

اكتشف كل منهما الآخر فى منظاره المكبر ثم تفاهما على اللقاء ! .. وصار الفيلسوف الشاب يتردد فى كل سبت على صومعة الموسيقى الشيخ ، فيقضى معه ليلة الأحد فى مناقشات طويلة عن الحضارة والانســـان والمستقبل والفن والفكر .. ثم صارت لنيتشه فى صومعة فاجنر غرفة خاصة تستقبله متى جاء وتنتظره اذا غاب ، وصار ڤاجنر يكلفه الاشراف على طبع تاريخ حياته ، وكوزيما تكلفه شراء هدايا عيد الميلاد للأولاد ! .. وبين انتقاء لعب الأطفال والاستماع الى الموســيقا الفاجنرية اكتشف نيتشه سر الموسيقا وسر الفلسفة ذاتها .. وكانت كوزيما تفتن نيتشه بشخصيتها النادرة وحكايتها الخارقة وصبرها على أهــواء العبقرية ، وكانت قد حصلت على طلاقها الرسمى من زوجها الأول وتم زواجها من ڤاجنر فى كنيسة لوسرن البروتستنتية فى ٢٥ اغسطس من سنة ١٨٧٠ .. وقبل ذلك بوقت قصير ، فى ١٩ يوليه ، وقف « اميل أوليفييه » زوج أختها « بلاندين » ورئيس الحكومة الامبراطورية الفرنسية ، على منبر إقصر بوربون الباريسى ليعلن الحرب بين فرنسا وألمانيا ! .. واستمرت الصداقة بين نيتشه وڤاجنر حتى بدأ الأخير يسعى جاهدا لجمع مليون مارك لمشروع « بارويت » القائم على بناء معبـــد (المسرح) وصومعة (البيت) ودار بقاء (القبر) .. هنا تساءل نيتشه : لم لا يؤثر هـــذا الصديق الفنان العيش فى صومعة تربشين الهاجعة فى تواضع على شاطىء البحيرة ؟! .. ان السر فى هذا الحلم الذى يعيش فيه الموسيقى الشيخ هو انه هرم وشاخ ! .. ان موسيقاه الجديدة نفسها تفصح هذا السر .. انه يمزج فى عمله الجديد « أفول الآلهة » عطور المســـيحية والبوذية فى مبخرة العجائز ، بل انه ليكاد يرتمى عند عرش الله !

وهذا لا يرضى نيتشه الذى يتأهب لرفع راية العصيان والتمـرد والذى يؤمن اليوم بأن الفاجنرية مرض ، وبأن عليه هو أن يسعى الى الشفاء من الداء الفاجنرى !

لن يكون خادما ذليلا لدكتاتورية « عصر الحضارة الفاجنرية » !

وفى صيف سنة ١٨٧٥ تم تشييد المسرح والبيت والقبر وبدأت المراجعات الأولى على ضوء مصابيح الغاز ، ومع مجموعة ممتــازة من الفنانين كانت ارادة ڤاجنر أن يخلق لهم أرواحا جديدة ويخلق بهـــم تعبيرا جديدا .. وترددت فى « المعبد » صلوات الفن فى أنغام تلك الموسيقا

وجاوبتها أصداؤها فى « بايرويت » كلها .. لكن « نيتشه » لم تعجبه هذه المدينة التى بدت له كما لو كانت صورة مصغرة من جبل الأوليمب صنعت من الورق المقوى الملون وقام بالتصفيق فيها جمهوور من الأغبياء المتحذلقين المولعين بحفلات العرض الأولى ! .. وقال نيتشه : ان ڤاجنر لما بنى هذا المعبد قد هزم نفسه بنفسه ووضعها فى المأزق الذى وضع نابليون نفسه فيه على أبواب موسكو !

واسدل الستار على الموسم الأول لمسرح بايرويت فصار كلّ شيء من حول الشيخ ساكنا بعد أن انفض السامر وانصرف الرواد ونام كل شيء فى المدينة الصغيرة ، وصار المسرح فوق التل ينتظر كالعملاق الأعمى عودة العمل ورنين النغم ، كأنه كتدرائية هجرها العباد !

ويسأل نفسه : هل هذا ممكن حقا ؟ بعث الانسان عن طريق الفن ؟

هو الآن فى التاسعة والستين ، وليس فيه شيء من شهوات كازانوفا ولا من جنون بايرون ، انما هو متهافت فوق أريكة يضرب الهواء بقبضتيه كأنه يصارع الموت .. وها هى كوزيما تأخذه الى شمس فينيسيا وجمالها ، قائلة لنفسها : اذا كانت الحياة جميلة فى المانيا فان الموت الجميل هو الموت فى ايطاليا !

ان حلمه الوحيد الآن هو العظمة الروحية متحررة من كل مادة ، وموضوع تفكيره الوحيد الآن هو بوذا الذى بلغ تلاميذه بقوة الفضائل وحدها مرتبة تجعل الملوك انفسهم يركعون عند أقدامهم !

وفى يوم ١٣ فبراير من سنة ١٨٣٣ دعت الوصيفة سيدتها الى غرفته فوجدته جالسا الى مائدة الكتابة وقد ارتفع أنينه المفجع ، لكنه أشار اليها بيده يأمرها بالخروج وحاول أن يجر بدنه الخائر نحو مرقده ، فانهار على كتفها ، وهو يهمس : « ساعتى ! » .. وكانت الساعة قد سقطت من جيبه الى الأرض ، وكانت دقاتها تخفق فى الوقت الذى توقف قلبه هو فيه عن الخفوق ..

ورأت فينسيا تابوتا نقشت عليه رءوس الأسود فى جندول يشيعه لحن جنائزى ، وخلف التابوت امراة يضج حزنها وراء نقاب الحداد ، وقد قصت شعرها الجميل ليحمله الراحل الحبيب معه الى قبره . وعبر التابوت أرض ايطاليا والمانيا فى موكب من مواكب النصر تنتظره الجماهير

وتستقبله الوفود وترفع اليه الأكاليل .. ثم خرجت « بايرويت » لتتلقى التابوت فى جوف الليل وتشيعه الى القبر فى جنازة يتقدمها أهل الفن وأصحاب السلطان وتنكس لها الأعلام وتتحرك لها إقوات الجيش وتعزف موسيقاه ، ويتبعها عن قرب كلباه العزيزان ، ويأخذ الثلج فى السقوط عندما يهبط الجثمان الى القبر الذى وضع الرجل بنفســـه تصميم طرازه ، وكان يحب أن ينظر اليه من نافذته كل صباح ..

اما كوزيما فأمامها سبع واربعون سنة تعيش فيها على ذكراه فى الدنيا ، فاذا جاءها الموت هى الأخرى كان آخر ما تقولَ كلمة جميلة ، اذ تهيب بالموت متهللة أن « خذنى اليه ! » ..

لو كان العالم ملكا لنا



« الموسيقا العظيمة هى كتابة الانسان الكامل » .

(پول ڤاليرى)

- ١ -

كانت القرية المتواضعة كالواحة الصغيرة وسط السهول الهنغارية المترامية ، تنزل بها من صيف الى صيف قبائل البوهيميين من شذاذ الآفاق ، أولئك الشعراء الموسيقيون الضاربون بالدف والقارئون للكف والعازفون على القيثار ، ما تكاد تقبل عرباتهم التى تجرها الخيل حتى تنصب الخيام حول النار وتلقى المشاعل أنوارها البنفسجية المضطربة على مناديل الغجريات ذات الألوان الفاقعة وتتألق الأقراط الذهبية الضخمة بين خصل الشعر الهائجة ، وترقص فوق النهود العقود من عنبر ومرجان ، وفى سكون ليلة الصيف الرائقة يرتفع من الكمان والقيثار والدف والصنج نغم عذب غجرى ، مضطرم ، بالوجد والمعاناة ، وتبرز على ايقاعه عجائز النسوة راقصات كالساحرات ، يرفعن نحو السماء أكفاً ناحلة كأنها ضراعات ، ويلقين فى صوت جماعى هذا النشيد الوثنى :

لا تعشق أبدا يا قلبى المسكين ..
لن تكسب من العشق غير الخيبة والندم !
تمتع بالهوى ، وأشبع عينيك ، وارو ظمأك
وارقص ! واشرب ! وغن يا قلبى ! ..
ولكن لا تعشق أبدا ! ..

وتسكت العجائز فتنطلق وسط الحلقة بنت غجرية ذات أقراط وعقود وحسن ودلال ، وتطلق عند النار الموقدة صرخة عالية ، ثم ترتفع الموسيقا مع صوتها الساخن الرطب اذ تغنى :

ذات مساء كانت البنت الجميلة عائدة مع أوزاتها ...
البنت ذات العيون السود والوجنـات البضـة ...
وكانت تغنى : لا تسع الى ، أنت يا من لست أحبك !
أنت لا تعجب روحى ، على ما عندك من حرير وذهب !
ان فردوسى مـع حبيبى الذى يهـواه قلبى ...
فعنـده وحـده كفايتى من الحب الى الأبد ...
ولست بباكيـة بعـده على حـريرك وذهبك !

وهذه الموسيقا العذراء كانت تكلم ولدا صغيرا فى القرية وتشعل وجدانه ، هو ابن السيد « آدم ليست » مدير مزارع أحد الأمراء ، والذى كان يعتقد أنه أضـاع حياته لأنه لم يولد لحساب المحاصيل بل للموسيقا ، فكان متى أقبل الليل و فرغ من عمل النهار المرهق فى أراضى امير الواسعة يقبل على البيانو أو القيثار فيبث الآلة أحلام شـبابه الخائبة .. وقد أقبل « فرانز » الصغير الى الوجود فى ٢١ اكتوبر من سنة ١٨١١ ضعيفا عليلا يأتمر به الموت ، حتى لقد دعا الأب ذات مرة نجار القرية كى يجهز التابوت ، ولو لم يعـد الطفـل السقيم الى الحياة ــ رغم شهادة الوفاة التى كتبها طبيب القرية ــ لكانوا قد دفنوه !

كان أول ما سمعه من أصوات الوجود أهازيج الفجر وتلك الألحان السهلة البديعة التى كان أبوه يخرجها من أمشاط البيانو أو من أوتار القيثار ، وفى عامه السادس يخيل اليـه أن تلك الأصـوات الساحرة « أصدقاء بغير وجوه » !

وعرف الأب فتنة الموسيقا لابنه الصغير فحمله الى البيانو راجيا أن يتحقق فيه حلمه القديم الذى لم يستطع هو تحقيقه فى شخصه ، وسأله عند البيانو وهو ينتفض من الرهبة :

ــ والآن يا صغيرى ، ماذا تريد فى غدك أن تكون ؟

ــ هـذا !!

قالها الطفل وأشار الى صورة ــ مرفوعة فوق البيانو ــ لبتهوفن !

ولم يكد الأب يمضى فى تلقين المبادىء الموسيقية لابنه الطفـل حتى وجد نفسه الطائرة من الفرح أمام اذن معجزة وأنامل خلقت

لتعزف دون تدريب وذاكرة هي آية الآيات تسجل دون مجهـــود كل نغم .. وفي فرحة الأب بالعبقرية الكامنة فى كيان ابنه النحيل ، أرهقه تدريبا خلال أشهر ثلاثة لم يلبث أن سقط فى آخرها يصارع الموت من جديد ، فكان حتما أن تنقطع دروس الموسيقا ، وسهرت الأم عند فراش ابنها العليل تقرأ له سير القديسين والأبطال ، فاستطاعت أن تلمس فى صغيرها ناحية عجيبة أخرى ، فهو صاحب نزعة صوفية تصبو الى سلام الروح ، وقد يسمعه أهله متحدثا الى نفسه في الليالى ، ربما وجدته أمه ووجهه يلمع بالدموع ، راكعا يصلى ! .

وفى العمر الذى لا يحلم أبناؤه بغير العاب الشارع وحلوى المربية صارت له شهرة فتحت له ابواب القصور والمسارح ، وأمدت أسرته بالمال الذى مكنها من مغادرة الريف الى العاصمة التى يعرض عليها نفسه كل فنان فى ذلك الزمان .. وفى فيينا قلعة الأنغام درس الفن على يدى الموسيقى الكبير « تشيرنى » و « انطونيو ساليرى » الايطالى العجوز آخر « معلمى » بتهوفن ، وكان نجاحه عظيما خلال السنتين اللتين قضاهما فى فيينا طالبا للعلم ، وفتن به الناس ، لكنه كان يحلم بشيء واحد : أن يسمعه بتهوفن ويعجب به ويجود عليه بمودته ..

لم يكن قد نسى صورة وجه بتهوفن العاصف فوق البيانو القديم في القرية النائية ، وهذا الرجل وحــــده هو من يريد أن يسمعه .. لكن « روسينى » كان قد غزا فيينا ومسارحها وقصورها وعواطفها ، فلم يعد يعزف فيها غير « حلاق أشبيلية » وغيرها من الموسيقى الايطالية ، بينما جر النسيان الجاحد ذيوله على « عصر بتهوفن » واســـدلت ستائر الصمم والفقر على العبقرى ذى العينين الوامضتين .. ويوم دخل « فرانز ليست » الصغير بيت العبقرى الأصم خالق السمفونية التاسعة الجليلة وغيرها من روائع القمم – بين « شـــندلر » صديق بتهوفن « تشيرنى » أستاذ فرانز – كان بتهوفن المستوحد فى أسوأ حالاته ، فأخذت الروعة بلب الصبى أمام عينين لم ير مثلهما فى العيـــون ، صارمتين نفاذتين ، وطلب بتهوفن من زائره الصغير أن يعزف من موسيقى « باخ » ما يشاء ، فلم يكد يفرغ من العزف حتى هتف بتهوفن : « يا له من ولد » ! .

وخرج الفنان الصغير وهو يرقص ويبتسم للنجوم ، ويكلمها !

ثم جاءت ليلة مشهودة وقف فيها على المسرح بقامته الطفـولية وهو يرنو ببصره المأخوذ الى أربعة آلاف مستمع شاخصة اليه ابصارهم، ثم سرت فى جسمه الضئيل رعدة وهو يرى ذلك الوجه الأسمر الجليل يتخذ مكانه فى هدوء فى أحد مقاعد الصف الأول، وعيناه تومضان ... وكان قد حاول ــ يوم زاره واسمعه ــ أن يحصـــل منه على وعـد بحضور حفلته العامة القريبة، لكن الشيخ الأصم لاذ بالصمت .. وهو ذا قد جاء! .. وتوقدت شعلة « الولد » الذى لم يكن فى تلك الليلة « يعزف » بل يضع بين يدى الموسيقار الأعظم خير ما منح من نفحات الفن .. وعندما دوت قاعة المسرح بالهتاف والتصفيق اندفع بتهوفن الى المسرح وتناول « الولد » بين يديه ووضع فوق جبينه قبلة سرى مفعولها فى كيان الفنان الصغير كسيال من كهرباء الفن المقدسة ..

وطـار به أبوه بعد هذا النجـاح الذى لهجت به الصحف فى أوربا كلها الى باريس، كى ينهل من الثقافة الموسيقية المكتملة فى الكنسرڤتوار الشهير، وينمى فى نفسه بذرة الابداع، جاهلا ان نظام ذلك المعهـــد الموسيقى لم يكن يسمح للأجنبى بالالتحاق به .. وقال الأب للمـــدير الايطالى الذى قذفه بهذه الصدمة التى لم يكن يتوقعها: لكنه طفـــل وراءه مجـــد، ومعى خطاب توصية من الأمير مترنيخ نفسه! ... فكان الرد من المدير .. الايطالى: مستحيل! .. ان ابنك ليس فرنسيا!

ولم يعد هناك مفر من الالتجاء الى الحفلات العامة مرة اخـــرى، وتدفقت على الأسرة الدعوات الى الصالونات الأنيقة، والهدايا والأموال، ووضع « دوق أورليان » ــ الذى سيغدو « الملك لويس فيليب » ــ دار الأوبرا تحت تصرف « الولد العجيب ».

أما رئيس الفرقة الامبراطورية فقد عهد الى « الولد العجيب » بتأليف أوبرا خفيفة بعنوان « قصر الهوى » .. وما ان عرضت هذه الأوبرا فى خريف سنة ١٨٢٥ فى أكاديمية الموسيقى الملكية حتى تبين هؤلاء الحمقى ان صبيا فى عامه الرابع عشر لا يسعه بالرغم من عبقريته النامية أن يحسن التعبير عن عواطف البشر المشتبكة وأهواء الحب العـارمة، وأن تلك الألحان الساذجة التى ألفها « موزار الثانى » لا تستطيع أن تنال النجاح فى باريس بالذات: حيث « الحب » فن! ...

وكان المؤلف الصـــغير نفسه أكثر النـــاس احساسا بمرارة هذه

« الهزيمة المشرفة » ، فنشر بعد أشهر قليلة — على سبيل الأخـــذ بالثأر — « دراساته » المليئة بالأفكار الجديدة ، رغم طابعها الكلاسيكى الوقور الباعث على الابتسام ..

وفى هذه الدوامة من الحفلات والرحلات كان الاجهاد قد آذى صحة المراهق العصبى الذى استقبله يوم ولد تابوت اللحاد .. وملئت نفسه فوق هـــذا حزنا من كلّ هذا العبث ، فما كان في الحقيقة غير « مشهد غريب » تسعى اليه الجماهير بفضولها ، وهؤلاء الذين يصفقون له لا يعنيهم « الفن » بل « التسلية » على حساب صباه الغض وموهبته المبـــكرة !

لا ! لن يكون بعد اليوم « الولد العجيب » الذى ينادى عليه المنادى أن هلموا للفرجة !

لا ! .. ان الفن أكرم من هذا منزلة وأعز قدرا !
الفن عبادة ، كالدين نفسه بل انه دين كالدين !

الم يمنحه الفن منذ وعى الدنيا ذلك الانفعال السامى الذى لم يجد له شبيها الا فى بيت الله ؟

ليس له أن يعيش مهرجا تهتف له الجماهير فى بلاهة ، وانما هى رهبانية فى الفن أو فى الدين ..

ولم يكد أبوه يسمعه حتى أمسك قلبه بيده :

— أتريد أن تكون من رجال الكنيسة بعـــد كل هذا المجد ؟! .. الكهنوت يا بنى ؟! .. انى أنا أبوك الذى يجوب معك منذ ستة اعوام هذه المغامرة الرائعة التى نحياها معا فى رحاب الفن ، ونلقى فيها كل يوم مفاجأة ، اقسم لك أنى لم الق من قبل مثل هذه المفاجأة الأخيرة ! ... تريد أن تكون قسيسا ؟ ! .. لسوف أرفع من غرفتك كل تلك الكتب الدينية التى تكدسها يوما بعد يوم ، فأنت يا بنى ملك للفن لا للكنيسة !..

وكل كتاب دينى رفعه الأب من مخدع ابنه فى ضوء النهار تسلل الى مكانه فى خفية عن العيون مع الليل كتابان !

وفي كل صباح وكلْ مساء ينطلق « فرانز » الى بيت من بيوت العبادة فيركع طويلاِ امام المذبح وتمتلىء نفسه الظامئة الى النور والمثل الأعلى سلاما ودفئا !

وهو الآن في زهرة الصبا وبريق الشهرة يصوم أياما من كل أسبوع، وتطالعه الرؤى فى نومه ، بل فى صحوة أيضا ، ثم يجده أهله ذات مساء فاقد الوعى عند معزفة .. متشنجا !

ــ ان حياتنا الدنيا هـــذه ليست الا مرضا من امراض الروح ، أما الحالة الطبيعية للروح فهى أن تكون طليقة مطمئنة فى الملكوت ..

كلمة عجيبة من ولد عجيب فى سنته السادسة عشرة !

- ٢ -

لما كان ابوه قد مات وواجه مع امه مطالب الحياة التى الجأته الى الطريقة المألوفة فى عصره : فهو من منتصف الساعة التاسعة صباحا الى العاشرة مساء من كل يوم استاذ يقصده تلاميذه أو يقصدهم فى بيوتهم ليلقنهم أسرار الفن .. وبين تلاميذه بنت سمراء اسمها « كارولين » كان أبوها « الكونت سانت كريك » وزيرا للتجارة ، وأمها الكونتيسة تعيش حياتها ــ لضعف صحتها ــ فى مقعد طويل .. وكانت عينا كارولين بنفسجيتين ! .. وهذه الطفلة ابنة السابعة عشرة هى قصة الحب البرىء الوحيدة فى حياته .. قصة ضنى وامتثال ، وقبلة واحدة مست بها شفتاه شفتيها يوم ماتت أمها ودخلت هى عليه باكية ، فالتقت على الحزن والعطف روحاهما ، ورات وجهه غارقا فى الدموع فامتدت اليه يداها ، وشفتاها .. ثم لم تمض أيام حتى قال له أبوها فى جفوة : ان كارولين ستتزوج من « الكونت دارتيجو » فلا حاجة لها بعد اليوم الى دروسه !

وخرج من قصر الوزير الى حيث وجد « الأب باردان » القسيس الذى ألف أن « يعترف » له ، فسأله ، مرة أخرى ، أن يمكنه من رهبانية الدير .. ولم يكن ذلك القسيس عليما بالنفوس وحدها بل كان من هواة الموسيقى ، وكان شديد الايمان بأن لهذا الغلام موهبة موسيقية حقيقية ، وأن له فى هذا الفن الرفيع وحده عزاء يرضيه ويقنعه ، فقال له :

انك يا بنى لا تخدم الله الذى تحبه فى الكنيسة وحدها ، انك تخدمه حيث تكون ، وتخدمه فى مهنتك كفنان ، فما من نفس تمسح موسيقاك على بؤسها الا كان لك ثوابها !

والحقيقة الخارقة هي أن هذا المرهف الحس قد مرض من صدمته فى حبه عاما ونصف عام ، ولزم فراشه بعد أن أسدل الستار على نافذته، جامد الوجه لا يكاد ينطق ولا تهفو نفسه الى الموسيقى ، حتى لقد قيل في باريس : « لقى فرانز ليست الصغير ميتة العشاق ! » وأعـــدت صحيفة «النجمة» رثاءه ليكون حاضرا عند اذاعة نبأ وفاته ! .. وكان هو يقول لأمه فى أعماق عزلته ان الحياة ليست الا مرضا من أمراض الروح، وان الحالة الطبيعية للروح هى أن تكون طليقة ! لكن الحاجة الى المال كانت الدافع الوحيد لاستئناف دروسه وصلته بالموسيقى .. وكان ذلك الألم الكبير قد رسمه كرســـامة الرهبان فتى من فتيان باريس ، بل من فتيان العصر ، فقد كانت الرومانسية يومذاك شيئا أعمق من مذهب أدبى وروحى ، كانت دستورا لحياة القلوب .. ثم هبت ثورة يولية من تلك السنة واخذت مواكب الثوار تمر تحت نافذته واصوات المدافع تدوى عند أطراف باريس ، فأيقظت الحماسة قلبه الهاجع ودفعته الى معزفه ليكتب « سمفونية الثورة » وقد استبدت به حمى فكرية جديدة ، فقد ادرك قيمة « الفن الاجتماعى » واستطاع أن يفهم كلمة « الأب لامنيه » : « ان بعث الفن هو بعث المجتمع ! » .

وكتب فى يومياته :

« ان أمشاط البيـــانو تحترق تحت أناملى ، لأنى اريد أن أكتب للناس موسيقى الرجل الشريف الحر ! » .

كان يبحث عن نفسه ، وقد هدته اليها هزات ثلاث لقيها فى تلك السنة وكانت الهزة الأولى يوم لقى « الأب لامنيه » ـ ذلك الراعى الروحى للعصر ـ الذى « يكاد حبه للحقيقة يسمو على حبه لله » ...

وقد دعاه الأب الى زيارته فى صومعته باقليم بريتانى ، فتعلم الفنان اليافع على يدى هـــذا المفكر الكبير فلسفة الموسيقى وكهنوت الفن ، وادرك أن أهل الفن هم حراس الشعلة المقدسة التى أودعها الله فى الكون الكبير ، وان قوانين الخلق هى نفسها قوانين الفن ، وأن مذهب « الفن للفن » لغو فارغ فليس للفن هدف غير السعى بالانسان نحو الكمال ، أسمى ما يمكن تصوره من صفات الله ، وما الفن صدفة ولا حليـــة ، ولا هو فوضى لا ضابط لها ، وما الكون الا أعظم خرائد الخلق الفنى !

وكانت الهزة النفسية الثانية التى دفعت به على طريق الكمال الباطنى يوم استمع الى روائع صاحبه الموسيقى المبدع برليوز ، جاءته الهزة الثالثة من فنان بولونى شاب يرقى مدارج المجـــد فى باريس ، هو شوپان .. وكانت النخبة المختارة من أهل الفكر والفن فى باريس تجتمع فى بيت شوپان ، وهناك اجتمع بهنرى هاينى وچورچ صاند وغيرهما من الأعـــلام ، وهناك ايضا التقى بالكونتيسة الشقراء التى كانت على قول معاصريها « حورية نادرة المثال فى حسنها وثقافتها والتماع شخصيتها » ... وكان للكونتيسة « مارى داجو » زوج يكبرها فى العمر، وقد هتفت بصديقها برليوز عندما قدم اليها « فرانز ليست » ، فى صراحة: « لله ما أجمله !! » .

وقد أسرت بعد ذلك نجواها لصديقتها الروائية المسترجلة جورج صاند ، العليمة بالهوى :

ــ لقد قالت لى الآنسة لنورمان العرافة انى سأحب رجلا يحدث فى الدنيا دويا وانى راحلة معه الى وطن جديد .. هذا ما قالت وهذا هو حبيبى !

كان عشقا جارفا من ذلك النوع الذى لا تجدى فيه مراوغة ولا يستحب فيه دلال ، وكانت دعوته اياها أن تهرب معه الى جنيف أن قال لها :

ــ تعالى نهرب رغم أنف صديقنا الذى يزعم أن الرجل لا يعـــد كاملا ما لم يكن له سبع نساء : امرأة للبيت ، وامرأة للقلب ، وامرأة للفكر ، وامرأة للمخدع ، وامرأة للاهواء والجنـــون ، وامرأة يكرهها ، وامرأة يتربص بها ويتبعها دون أن ينالها ! .. تعالى نهرب ونكافح ، ونتعذب ، فان بنا كلينا حاجة الى الأخطاء الكبيرة !

وهجرت « مارى » زوجها وأبناءها ودنياها وتبعته الى البحيرة السويسرية الجميلة ، حيث جعلا من ستائر عشهما فى الغربة حـــدودا لوطنهما .. ولم يكن فى جنيف من يعرفهما ، مع أن رحيلهما عن باريس قد أثار فيها فضيحة من تلك الفضائح التى تعرف باريس كيف تتكلم عنها وتعيش فيها .. واتخذ العاشقان عشهما فى شارع تشرف نوافذه على جبال الچورا ، فاذا جلس الى البيانو وارتفعت فى الحى الساكن انغامه الخلابة برزت على الشرفات صبايا الحى واجتمع فى الشارع رجال ونساء يستمعون فى اعجاب وفضول ، واذا مشت هى فى الشارع ،

شقراء كالشـــعلة ، تلفت الرجال يسرحون ابصـــارهم فى أعـــوامها الثمانية والعشرين الجميلة .. هى المانية النشأة ، فرنسية الثقافة ، كاثوليكية الأب ، بروتستنتية الأم ، غريبة عن الوطن الذى ولدت فيه وعن كل وطن تعيش فيه ، وهى تعبد الجمال فى الأشياء والمعانى والفنون عبادة غريزية جرمانية ، وتكاد تكون وثنية ، وتمزج غرائزها وفكرها بحياة حبيبها الذى لم يترك وراءه ما يعتز به أو يحن اليه ، أما هى فنزلت راضية عن أبنائها وثروتها ومركزها الرفيع وزوجها ، ويا لها من بائنة ضخمة دفعتها للحب دون ان تأسى على شيء مما كان لها !

ان حدود وطنها الجديد هى نهاية هذا الشارع التى ســـيظهر عندها بعد قليل حبيبها العائد من نزهة المساء !

لكن هذه العزلة العاطفية الطويلة فى عش جنيف لم تكن غير نوع من « النوم » الذى يسبق عند الفنانين فترات الاخصاب .. وقد رزقا فيها بنتا سمياها « بلاندين » وأهداها الأب في ســـاعة مولدها لحن « الأجراس » الذى تبدأ به موسيقى « أعوام الحج » .. وقيـــد مولد الابنة في سجلات المواليد هكذا : « بلاندين ، الابنة غير الشرعية لفرنسوا ليست ، أستاذ الموسيقى ، البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة وشهرا ، وكاترين ميران ، البالغة من العمر أربعا وعشرين سنة (كان عمر الكونتيسة مارى داجو يومذاك ثلاثين سنة !) ـ وكلاهما غير متزوج .. »

وكتبا الى صديقتهما جورج صاند يدعوانها الى زيارتهما فى منفاهما الجميل ، فوصلت الى جنيف مع ولديها وأوراقها ومجموعتها الفاخرة من ملابس الرجال ، وكان العاشقان قد رحلا الى « شامونيكس » فلحقت بهما .. ووضع كاتب « فندق الاتحاد » سجل النزلاء بين يدى هـــذه الوافدة الجديدة التى برزت له فى زى رجل ، فقرات أمام رقم احدى الغرف البيانات التالية :

الاســـم	:	فرانز ليست .
جهة الميـــلاد	:	جبل البارناس .
المهنـــة	:	موسيقى فيلسوف .
قادم من	:	الشـــك .
وجهتـــه	:	الحقيقـــة .

فتناولت القلم وكتبت البيانات الخاصة بها :

الاســـــم	:	جورج صاند .
جهة الميـــلاد	:	أوربـــا .
المهنـــة	:	متسكعة .
قادمة من	:	المـــاضى .
وجهتهــــا	:	السمـــاء .

وقرأ صاحب الفندق ــ من فوق كتفها ــ هذه السطور العجيبة ، فرفع يديه نحو السماء فى فزع : يا الهى ! واحدة أخرى من هــــذا الصنف المجنون ! .. لن يلبث الفندق أن يتحول اذن الى قطعة من الجحيم يعبث فيها هؤلاء البوهيميون الذين يهزأون بالملك وبالتقاليـــد وبالقانون وبرؤساء الخدم !!

والحق أن فرانز وماری استقبلاها فى مرح عنيف جعل صاحب الفندق المسكين الوقور ينظر فى فزع متزايد الى تلك العصابة من المجانين التى يتزعمها موسيقى مختال كأنه سلطان شرقى يتنزه مع جارتين من حـــريمه !

ولم يتنفس صـاحب الفندق بالارتياح الا عندما شبع المجانين من لهوهم الصاخب وحـزموا متاعهم قاصدين قصر الكاتبة المسـترجلة فى « نوهانت » على اثر طلاقها من زوجها ، لكن هذه القافلة المجنونة لا تلبث أن يعتريها القلق ويدفعها مرة أخرى الى الهجرة الى ضفاف بحيرة كوموا التى قيل فيها ان سكونها للموسيقى وغروب الشمس فيها للشاعر ، فصادوا السمك في الليل فى زورق على ضوء المشاعل ، وتأملوا النجوم وكلموها وكتبوا الشعر والرواية والموسيقى ، ورزقا ببنت ثانية سمياها « كوزيما » هى تلك التى ينتظرها القدر ليجعل منها محوراً للفاجعة العاطفية المشهورة فى التاريخ الموسيقى ...

ـ ٣ ـ

الدانوب الأزرق الجميل يهيج فى بعض الأحيان شأنه شأن غيره من الأنهار فيدمر فيضانه مئات القرى ويشرد الآلاف من سكانها ، وقد وقعت كارثة من هذا النوع بينما كان « فرانز ليست » يمرح فى البندقية مع الشقراء صاحبته وعصابتهما اللاهية ، وقرأ هو النبأ المحزن الوارد من وطنه فى صحيفة ألمانية ، وكشف له الانفعال الذى عاناه لأول مرة معنى كلمة « الوطن » ... فبادر بالسفر وحده الى فيينا حيث اقام عشر حفلات فى شهر واحد ، استمع اليه فيها ذلك الجمهور الحساس الذى لم يره منذ عهد بعيد ، وعزف مختارات لبتهوفن وهاندل وبرليوز وشوبان ، وأخرى من مؤلفاته ، وكتبت عنه العازفة العظيمة « كلارافييك » ـ التى ستغدو زوجة روبرت شومان ـ فى مذكراتها : « انه لا يعزف ، بل يمزق قلبه فى النغم ! » .

وبعث بكل دخله العظيم من حفلات ڤيينا الى مواطنيه المنكوبين ، دون أن يقتطع منه شيئا لحياته الخاصة .. واستأنفت « القافلة المجنونة » بعد ذلك رحلتها خلال مدن ايطاليا ، لوجانو ، وبولونيا ، وفلورنسة .. وفي روما وضعت « مارى » مولودها الجديد ، وكان فى هذه المرة ذكرا ، فدعواه « دانييل » .. وكانت هى دائمة الشكوى ، يخيل اليها أن « الفن » يشغل صاحبها عن « الحب » .. وبدأ صوتهما يرتفع فى المناقشة .. كان يريدها أن تعرف أن الفنان ـ حتى فى الحب ـ يتطلب الحرية ، وكانت تريده أن يعرف أن الحب عند المرأة قد تقتله الكبرياء الجريحة ! ..

وعندما تركها مرة اخرى فى جنوة ورحل الى ميلانو كتبت اليه فى مرارة :

« ان عمر حبنا اليوم خمس سنين ، وربما كان فى ذلك الكفاية ! » .

فأجابها من ميلانو ، فى نعومة :

« لقد كنت لى الملاذ والعزاء ونبع الخير ، فهلا بقيت لى ؟ » .

وحملت اليهما الصحف نبأ الاكتتاب العام لاقامة نصب تذكارى لبتهوفن فى مدينة « بون » وكيف هزت « الأريحية » الشعب الفرنسى فجمع لهذا الغرض ٤٢٤ فرنكا !! يا له من عار ! .. وتناول من فوره القلم وكتب الى صديقه المثال الفلورنسى « بارتولينى » يسأله عن نفقـــات المشروع : فجاءه الرد ، عام من الزمن . وستون ألفا من الفرنكات .. فبادر بالكتابة الى اللجنة المشرفة على المشروع مؤكدا أنه سيدفع وحده هذا المبلغ ..

وصرخت صاحبته : ستون ألفا !!

فأجابها : ثلاث حفلات فى فيينا وباريس ولندن فيها الكفاية !

وبعث بها وبالأطفال الثلاثة الى باريس ليقيموا عند أمه ، وقصد فيينا التى سعت اليه لتستمتع مفتونة بذلك السحر الجديد الذى عاد به من ايطاليا .. لقد اكتملت له العاطفة والقوة والعمق والفكرة والأسلوب.. ثم اجتاز الحدود الى وطنه فلقيته مدينة « برسبورج » ــ التى ترتبط بها ذكرى أول حفلة أقامها منذ عشرين سنة ــ وقد اخرجت له على ضفاف الدانوب كل نسائها ورجالها وأطفالها ومحبتها .. ثم استقبلته مدينة « بست » كملك يطوف بأرجاء مملكته ، فعزفت له فرقتهـــا الموسيقية نشيدا خاصا ، وأهداه نبلاؤها سيفا مطعما بالأحجار الكريمة ، ورفعه مواطنوه على الأعناق ، وانتظم من حوله موكب قوامه عشرون ألف نسمة اخترق المدينة فى أنوار المشاعل .. ثم لا تكاد القرية الصـــغيرة الوادعة التى نشأ بها تسمع بعزمه على زيارتها حتى يخرج عمـــدتها وفلاحوها على ظهور الخيل ، كما نحر جزارها عجلا سمينا فى الميدان العام ، واذا قبيلة من غجر التزيجان تحييه بموسيقاها وتذكره بأنغام شعبية مضطرمة كان يسمعها من الفجر صبيا .. وهبط الليل فأوقدت النار فى اثنى عشر برميلا من براميل القار ، وانطلقت وسط هذا المشهد الشكسبيرى بوهيميات نصف متجردات يرقصن ، واذا بأجملهن ــ كالمهرة

العصبية ـ تدق الأرض بقدميها وهى تتلوى وتغنى وعيناها تكلمان عينى الضيف العبقرى ..

« لا تعشق أبدا ، يا قلبى المسكين !! .. » .

وعاد بعد جولة طويلة عرف فيها النجاح والفشل الى ضفاف الراين، فاشترى كوخا فيإحدى الجزر الألمانية الصغيرة غيربعيد من كولونيا ودعا اليه صاحبته وأولادهما .. ولم يكن فى الجزيرة غير حفنة من صيادى السمك والراهبات ، فرنت الحانه الجديدة رنينها العذب فى الليل على أمواج ذلك النهر العجوز .. وعندما زار كولونيا ووقف أمام كتدرائيتها الناقصة هتف بصاحبته :

« لست أدرى لماذا يحرك نفسى الى حد الرغبة فى البكاء مشهد المعابد العظيمة ؟ .. ربما كان السبب أن الموسيقى هندسة الأصوات ، أو أن الهندسة هى موسيقى تبلورت ! .. ان بين هذين الفنين على كل حال قرابة وثيقة أحسها في أعماق نفسى .. » .

لكن مارى لم تكن سعيدة كما تريد المرأة ، وكانت تشعر أن قصة حبهما الكبير قد انتهت فصولها الجميلة ، وانهما يخدعان نفسيهما ، فان الزمن والمجد يعملان على تقويض دعائم الحب القديم ، وتلك ضريبة الفن يدفعها كل فنان راضيا أو كارها .. لم يعد يربط بينهما غير الأولاد ، أولئك الشهود الأحياء على نشوة الماضى .. انهما ـ على قول جورج صاند اللماحة ـ « سجينان فى سجن الهوى » .. ولو فتح لهمـا الباب على مصراعيه لتردد كل منهما فى الخروج الى فضاء الحرية !

ومرة اخرى افترق « سجينا الهوى » دون أن يجرأ أحدهما على لفظ كلمة القطيعة القاسية ، فذهبت هى الى باريس حيث جمعت حولها باقة من المشاهير ، بلزاك وهوجو وموسيه وسنت بيف وغيرهم ، وذهب هو الى برلين حيث كانت الجماهير المتراصة تزدحم أمام فندقه والنساء يقبلن يديه ويحملن صورته على صدورهن ! ..

هنا فى برلين دخل « فرانز ليست » من قوس النصر ، وهنا نساء يسكبن فى قنانى العطر الفارغة ثمالة أقداح الشاى التى يشربها ، ويجرحن أيديهن بالأظافر وهن يخلعن القفازات مصفيات الى عزفه البـــارع الخلاب ! . . وواحدة منهن ــ تعرف اليها فى القصر الملكى حيث كان يدعى كل ليلة لتقدم اليه الأسرة المالكة فروض الولاء ــ كانت أجمل وأعظم ممثلات ألمانيا ، وكانت بافارية شقراء ذات عينين يمور فيهما المرح ، لم تكد تلقاه مرة بعد مرة حتى كتبت له على طرف مروحتها أبياتا من الشعر :

« أيها الشاعر ! ما الحب وما القبلة ؟ » .

« قل ولا تخف ! » .

« علمنى !

« ــ اسمعى ! . . الحب نفثة روح مشرف . . » .

« والقبلة كلمات كانت اقصر كانت خطيئتك أعظم !! » .

ولم تكن « شارلوت دى هاجن » هذه وحدها القمر الطائف بكوكبه الساطع ، بل كانت هناك الكثيرات ، ومن بينهن « بتنا فون أرنيم » التى منحته ــ فى عامها السابع والخمسين ــ رعاية روحية كريمة سبق لها منذ ثلاثين سنة أن منحتها لجوته وبتهوفن . . ثم كان وداعه فى برلين مشهدا تاريخيا ، فقد خرج شبابها فى موكب من العربات وراء عربة « أمـــير الشباب الذى يفتح للشباب أبواب عالم البطولة المسحور » . . وكان نجاحه قد سبقه لينتظره في « وارسو » أيضا ، ثم فى روسيا حيث أحاط نفسه بحاشية من المعجبات والمعجبين تتبعه من مدينة الى مدينة ، وكان له بين حشمه فتيات فى ثياب غلمان ! . .

وبينما كان هو يجنى ثمار المجد كانت صاحبته مارى فى باريس تغرق نفسها فى أعمال أدبية وصحفية واجتماعية ، فتكتب للصحف مقالات ، وقصصا ، وذكريات ، وتغمزه فيما تكتب كلما بلغتها أنباء معاشقه فى روسيا وألمانيا وأسبانيا ، ثم تسمع عن علاقته بالراقصة « لولا مونتيز » فى درسدن ، تلك القطة الخطرة الجميلة التى عشقها العالم الأوربى كله ، والتى كان له معها ــ هو الآخر ــ غرام عنيف قصير لم يلبث أن وضع حدا له بطريقته الحاسمة : أغلق عليها المخدع بالمفتاح وغادر المدينة خائفا يتلفت ! . . ومع أن « لولا » قد ظلت بعد رحيله يوما كاملا تحطم كل

ما يقع تحت يدها ، فانها لم تلبث أن استبدلت به ملك بافاريا « لويس الأول » الذى كاد يجعل منها ملكة ، وكتبت الى عشيقها السابق « فرانز ليست » رسالة رقيقة مرحة تمنحه فيها « جلالتها » أرفع وسام فى الدولة « ليحمله فوق قلبه » ! .. وكانت هذه قصة ذاعت فى أوربا كلها — أوربا الرمانسية فى ذروة عصر القلب فوجدت « مارى » فيها الفرصة المنتظرة للقطيعة النهائية ، وبذلك أسدل الستار على تلك العلاقة التى خلدت صاحبيها في التاريخ العاطفى لعصرهما الرومانى ، والتى قضى عليها من جانب الرجل قلبه المتقلب ومجده وأسفاره وعطشه ، ومن جانب المرأة مركزها الاجتماعى وكبرياؤها الجريحة ..

ذلك الولـــد العجيب ، ذلك « الأفاق الـــذى لا يتعب » !

بعد انفصاله عن الكونتيسة « مارى داجو » سافر الى اسبانيا وأقام حفلة فى مدينة « بو » الصغيرة باقليم البرانس ، فلم يكد يدخل قاعة الكونسرت حتى رأى هوى صباه البكر ، راى « كارولين دارتيجو » ـ تلك التى كانت قبل زواجها تدعى « كارولين دى سنت كريك » والتى كانت يوما ما تلميذته ومعبودته ـ رآها جالسة فى احد مقاعد الصف الثانى .. ولم يكن يعلم أنها تقيم مع زوجها فى احدى ضواحى المدينة الأسبانية ، فلما التقت عيونهما صار الزمن الماضى وهما من الأوهام ، ستة عشر عاما كأن لم تكن ، وكأن المستحيل قد وقع ، وكأنهما ما افترقا قط ولا ضاع حبهما .. وكلمته ، فقالت له ان حياتها من بعده لم تكن غير استشهاد طويل بطىء تقبلته صابرة راضية ، لأنها احتفظت فى قلبها بحبه القوى العميق صلبا متينا يشبه ايمان المؤمنين فى جماله الخالص الذى لا حاجة به الى القرب والشبع .. ووجد هو فى هذا المعنى قبسا نورانيا كريما ، وكان ذلك لقاء الوداع أيضا ، وفى ذكراه وضع واحدا من أجمل الحانه ـ ذلك الذى دعاه « وصية شبابى » .. ولقد ظل يذكرها ـ فى أحاديثه ورسائله ـ الى يوم موتها ، بعد ثلاثين سنة ، وبعد موتها ..

وفي صيف سنة ١٨٣٥ أقيم فى « بون » مسقط رأس بتهوفن ذلك النصب التذكارى الذى طال حوله الجدل ، وكانت اللجنة المشرفة على المشروع قد رفضت التمثال الذى صنعه المثال « بارتولينى » واختارت تمثالا متهافتا من البرونز لمثال المانى .. وقاد « ليست » الأوركسترا بمسمع من أوربا التى أوفدت رسلها للاشتراك فى الاحتفال ، واسمعها مختارات من موسيقى بتهوفن ، وكان يومذاك فى الخامسة والثلاثين ،

وعلى أهبة الرحيل الى امارة ڤيمار وأميرها المثقف الذى تعيش فى بلاطه ذكريات جوته وشيلر ، وذكريات الشعر والنغم ..

ولقد شهدت امارة ڤيمار الألمانية صداقتين عظيمتين : أولاهما التى جمعت « جوته » و « شيلر » فى مطلع القرن التاسع عشر ، وثانيتهما تلك التى ألفت بين نفسى « ليست » و « ڤاجنر » بعد نصف قرن ، وهى صداقة نستطيع أن نقول ان أوروبا الموسيقية الجـــديدة قد ولدت فى ظلها ..

وعندما وصل « ليست » الى « ڤيمار » وجد فى انتظاره رسالة من « ڤاجنر » يقول له فيها :

« يا صديقى الكبير ! انى أفكر فى نشر أوبراتى الثلاث ، وأحسب أن فى وسعك مد يد العون الىّ ، فهل يسعك أن تمدنى بالمال اللازم ؟ أتملكه او يملكه شخص يقرضنى اياه حبا فيك ؟ .. ما أبدع أن تكون أنت ناشر أوبراتى ومالكها ! .. أتعرف معنى ذلك ؟ ان معناه أنى أعود انسانا ، بل فنانا حظه من العيش العمل الدائب والرضا بالقليل .. انك بذلك المال يا عزيزى تعتقنى من العبودية .. أفترانى ، كعبد ، أقوم بهذا الثمن؟! .. » .

وكان « ليست » قد دخل الامارة الصغيرة بعد جولة ظافرة من جولاته الفنية والعاطفية التى لا تنتهى زار خلالها مدينة لاهى من الشرق ولاهى من الغرب ، ينبعث من أجراس كنائسها التى تزيد عن ٣٦٠ كنيسة رنين ينتشر عليها كأنه راية من الموسيقى ، وفى تلك المدينة « كييڤ » تعرف الى الأميرة البولونية « كارولين دى ساين » التى حمل اليه رسولها مئة روبل تبرعا منها للكونسرت الخيرى الذى اعتزم اقامته ــ على عادته كلما نزل بمدينة جديدة ــ فذهب الى بيتها ليرفع اليها شكره ، واستقبلته بعينيها التتريتين وهى تدخن السيجار وتتكلم الفرنســـية فى عذوبة ونعاس .. وكانت لها ابنة تمرح فى نضارة عامها العاشر ، أما زوجهـــا الضابط الروسى فكان يعيش بعيدا عنها .. ووجد نفسه بين يدى امرأة مسترجلة تدير بنفسها أملاكها الواسعة فى روسيا وتملى ارادتها على رجال ، وبعد أيام كانت تحمله فى عربتها الفاخرة الى قصرها الريفى القائم وسط الأحراج فى أرضها التى تكاد تكون مقاطعة كاملة بين « كييڤ » و « أوديسيا » ! ..

وكان للقصر كنيسة صغيرة وحوله غابة سنديان وبحيرة كبيرة ، وكان أثاثه كله من ابتكار صاحبته ، أما مخدعها فكان بدعة غارقة فى القطيفة

القرمزية ، وفي صدره صليب ضخم من الخشب يرتفع الى السقف ! .
وفي قاعة الموسيقى بالقصر العجيب أرائك خضراء وحشايا منثورة وتحف نادرة ، وجلد دب تتمدد فوقه الأميرة لتدخن « الشبك » الشرقي ..
وفي بهو القصر يجتمع الخدم كل مساء لينشدوا على أنغام الآلات الوترية أناشيد الجماعة المؤثرة الروسية العامرة بالحنين .. أما الأمير رب القصر فهو غائب يصيد الذئاب في الغابات أو يصيد النساء في مدن أوروبا ! ..
ووجد عندها مؤلفات « هيجل » و « دانتي » و « فخته » كما وجد « التلمود » و « فاوست » و « الكوميديا الالهية » ..
وقالت له هذه الأميرة المثقفة الساحرة :

ـ لابد للموسيقى في هذه المرحلة من أن تدخل عصرا جديدا ، لأنها بعد « باخ » و « جلوك » و « موزار » و « هايدن » و « بتهوفن » ـ أولئك الكلاسيكيين العظام ـ وبعض المحدثين أمثال « برليوز » و « شوبان » و « شومان » منيت بعقم يكاد يتهدد مجدها .. فما قولك وأنت في زهرة نضجك الفني وأوروبا كلها تنتظر منك الكلمة ؟!

وكانت رسالة ڤاجنر قد هزت قلبه الطيب فسعى حتى حصل من البلاط على اذن باخراج « تانهويزر » وكتب الى صديقه المستغيث به يدعوه للاشتراك في المراجعات التمهيدية ، لكن ڤاجنر لم يتمكن من السفر الى ڤيمار ، وبذلك بدأت تلك السلسلة من المراسلات وازدهرت معها تلك الصداقة الجميلة التي وادها ڤاجنر بيديه بعد أعوام تفيأ فيها ظلالهـــا الوارفة ..
وفي رسائل ڤاجنر الى ليست عرفان وحمد .

« منذ أربع سنوات كانت « تانهويزر » تنتظر من يعرضها ، وها انت يا صديقي العزيز تأتي من بعيد لتقيم في مدينة يملك بلاطها مسرحا صغيرا ، واذا انت تمد يدك الى زميلك الذي امتحنته الأيام .. وما من انسان يعرف مثلي قدر هذا الصنيع ، لقد أقمتني وشددت أزري وبثثت في نفسي الشجاعة على الاحتمال ، وذلك الفضل الذي يرجع اليك وحدك .. » .

وفي رسائل ليست الى ڤاجنر اعجاب وعطف ورغبة خالصة في خدمة الصديق وابراز فنه الكبير :

« لماذا تشكرني وانا المدين لعبقريتك ولصفحات « تانهويزر » العظيمة بسعادتي ؟ .. اني أسألك أن تضمني منذ الآن بين أكثر المعجبين بك اخلاصا لك ، ومن حقك ـ قريبا كنت أو بعيدا أن تعتمد علي .. » .

وتلقى « تانهويزر » ما هى جديرة به من نجاح فيكتب ڤاجنر الى صديقه الكبير ، من رسالة طويلة :

« لو أن العالم كان ملكا لنا ، نحن أهل الفن ، لوهبنا الناس سعادة عظمى ! » .

ولا ينقضى شهران حتى تكون الثورة قد انفجرت فى درسدن حيث يقيم ڤاجنر ، ويخوض ڤاجنر غمارها ثم يهرب عقب فشلها ناشدا الأمن عند صديقه ، الذى رآه فجأة ذات صباح من أصباح الربيع واقفا أمامه وفى يده حقيبة صغيرة تضم أصول « لوهنجرين » وغيرها من الروائع الڤاجنرية ، فأعانه على الاختفاء ، ومكنه من أن يشهد — من مقصورة فى المسرح ضربت عليها الأستار — عرضا ظافرا لتانهويزر يقوده « ليست » بنفسه .. ويقول « ڤاجنر » عن هذه الذكرى :

« بكيت .. بكيت لأن ما كنت قد أحسسته عند وضع تلك الموسيقى كان هو يحسه وهو يقود الفرقة فى عزفها ، وما أردت أن أعبر عنه عند كتابتها كان هو يقوله وهو يشرف عليها .. وبفضل هذا الصديق النادر الذى اكتشفت فيه « ذاتى الثانية » ، وفى الوقت الذى أصبحت عنده رجلا لا وطن له ، أدركت أنى قد حزنت آخر الأمر ما بحثت عنه عبثا وفى كل مكان : الوطن الحقيقى لفنى .. » .

— ٥ —

هو الآن ينتج انتاجا غزيرا متصلا ، ويكتب دراسات عن « شــوبان » و « ڤاجنر » و « بتهــوفن » و « موزار » و « برليوز » ، ويشرف بوصفه مديرا على اخراج عدد كبير من الروائع الموسيقية : « فاوست » ، و « مانفريد » لشومان و « الملك الفريد » للموسيقى الشاب المجنون العبقرى « راف » والمسيح « وشمشون » لهاندل ، وآيات بتهوفن ومندلسن وشــوبير و « جلوك » و « برليوز » و « موزار » وغيرهم ، ويفرغ من كتابة آخر « أشعاره السمفونية » .. وهو رجل دائم التجوال : نراه فى زيوريخ حيث يلتقى بصديقه ڤاجنر بعد فراق أربع سنين فيحدثه عن شوقه الى أبنائه الثلاثة الذين يعيشون بعيدا عنه فى باريس ، ويقترح فاجنر أن يسافرا معا لزيارتهم هناك ، وما أن يسمعه ليست حتى يسأله أن ينتظره فى أحد فنادق « بال » حتى يجىء بالأميرة وابنتها الصغيرة ذات الوجه الحالم التى بلغت ربيعها الخامس عشر .. وكان اذا تكلم عن الأميرة لم يذكر اسمها بل دعاها « رفيقة حياتى ومدار فكرى وصلاتى الحية وســماء روحى ، من أكملت ايمانها بالحب ، واحتفظت برجائها خلال الألم ، وشادت سعادتها على التضحية ، وباعت فى الحب أمنها وأمجادها ، وأتاحت لى بحبها الكريم الصامت هذه الحياة الحافلة الخصبة ! » .

وفى الموعد ، وفاجنر جالس فى بهو ذلك الفندق ، ارتفع فجاة على الطريق صوت جماعة مقبلة تغنى من موسيقاه مقطعا من «لوهنجرين» ثم فتح الباب على مصراعيه ودخل « ليست » تتبعه صاحبته الأميرة كارولين وابنتها وسط رهط من تلاميذه المنشدين المهللين .. فلتبدأ الرحلة الى باريس حيث الولد والبنتان : « بلاندين » و « كوزيما » الموعــودة بالمــأساة !

ويدخل العبقريان باريس ، أحدهما في الثانية والأربعين ، قد بلغ الغاية من تفتح الموهبة وعاش حياة كالمعجزة وسطع اسمه في أوربا كالنجم المضيء ، والآخر في الأربعين ، وان بدأ فاجنر تحت قناع التعب وسوء الحظ أكبر سنا .. وجاءت ابنتا الأول تدفعهما مربيتهما ، كبراهما في الثامنة عشرة والصغرى في الخامسة عشرة ، فوضع الأب على جبين كل منهما قبلة خجلة سعيدة .. أهاتان الجميلتان ابنتاه ! .. قال لهما انه سيفازلهما ورزقه على الله ! .. وقدمهما الى فاجنر في زهو بجمالهما وموهبتهما الموسيقية .. والقدر على الأبواب متربص يحبك خيوطه للمستقبل ! ..

وتخلف فاجنر في باريس بعد عودة ليست الى فيمار ، وكتب الى صديقه بعد قليل ينبئه ان الآنستين « بلاندين » و « كوزيما » قد تبنيتاه، وقد احتفل معهما بعيد ميلاد ابيهما الغائب ، وعزف لهما مختارات من تانهويزر ، وروى لهما النوادر ... وكان ليست قد بدأ التفكير في القداس الكبير الذى كلفه رئيس كرادلة هنغاريا بتأليفه لكنيسة جران عاصمة الكاثوليكية في هنغاريا ، فانقطع له أسابيع ، وكتبه في خشوع .. وأمام أربعة آلاف مستمع في تلك الكنيسة ، من بينهم الامبراطور والأمراء ، رفع عصاه ليقود أول أعماله الدينية الكبيرة .. وقد كان هذا القداس بقالبه المبتكر ـ موضع الرضا من انصار المدرسة الحديثة ومثار النقد من أولئك الذين ينظرون الى كل عمل فنى جرىء نظرتهم الى ثورة مكتسحة مدمرة .. ولم يعبأ هو باللفظ الأحمق بل انطلق بقداسه الى بودابست وبراغ وستتجارت ، فبث في كل مدينة منها ذلك النغم الذى ينفح بعطر الروح .. وفي المدينة الأخيرة نزل ضيفا على واحدة من اجمل نساء العصر هي « مارى كلرجيس » التى نجدها في أشعار الشاعر « تيوفيل جوتييه » باسم « الجنية البيضاء » وفي أشعار الشاعر « هنرى هاينى » باسم « البجعة » ، وتلميذه « شوپان » وشريكة « ليست » في الايمان بفاجنر ، والتى كان يقال عنها انها جاسوسة للقيصر ، وانها أجمل امرأة في العالم « وبياض بشرتها من الجليد البكر والشمع الناصع وزبد البحر » ! .. وفي بيتها صلى وهام وعبد الجمال !

ويعود « الأفاق الذى لا يتعب » الى عمله ، ويلقى من الجمهور الرضا والغضب والاقبال والادبار فى سكينة أنزلتها في قلبه تجارب السنين،

ويجيئه « هانز دى بولوف » تلميـــذه ومريده وأكبر داعية للمدرسة الحديثة ـ وأستاذ البيانو فى كنسرفتوار شتيرن المشهور ببرلين ـ فيطلب اليه يد ابنته الصغرى « كوزيما » ... أما « بلاندين » فقد كانت ترد يد كل من يتقدم لخطبتها ، ولعلها تركت قلبها فى باريس قبل أن تنتقل مع اختها الى برلين ؛ حيث اقامتا عند مدام بولوف والدة « هانز » الطيب .. وتزوجت البنتان : « بلاندين » تزوجت المحامى « اميل أوليفييه » (الذى سيغدو رئيسا للحكومة الامبراطورية الفرنسية) ، و « كوزيما » تزوجت « هانز دى بولوف » فى برلين .. وتوج الأب هذا العام الحافل (١٨٥٧) بسمفونيته البديعة « فاوست » التى قيل عنها انها الثمرة المكتملة التى لا تنبتها الشجرة في عمرها كله الا مرة واحــــدة ...

وفى تلك الفترة كتب الى صديقه فاجنر رسالة يقول له فيها انه بلغ تلك المرحلة النفسية التى لا ينتظر المرء فيها شيئا ولا ينيله ما تغـدقه عليه الحياة مزيدا من الهناء ، كأنما بلغ القمة الباردة التى يستوى عندها كل شيء :

« كل فن يحمل فى ذاته نهايته ، كما تحمل كل مسرة بذرة الملل القريب ، وكل حياة موتها ... ولا زلت فى هذا العالم دون أن أدرى لماذا .. ان فكرى يسكن اليـــوم عالما لا يعــــرف غيرى عنه شيئا ، ولو سئلت عنه لاعجزنى أن أجيب ... » .

اما الموسيقا فهى عنده الكائن الحى الذى لا يموت أبدا والذى ينبغى له ان يتحرر من اغلال الجمود وينطلق ويحلق ويسمو بقلب الانسان فى كل مكان :

« ان أمير ڤيمار لا يريد أن يفهم ان هناك مدرسة جديدة فى الموسيقا .. ولو انى ظللت فى وظيفتى عنده لكنت بذلك أعطيه ما لا يعوضه مال وان كثر : وقتى وسمعتى وايمانى بالفن الجديد ... ولقد عشــــت فى ڤيمار اثنتى عشرة سنة ، فلو أنى نزلت من مبدأ الأمر عنـــــد رأى هؤلاء السادة لنلت حمدهم وكسبت مع الحمد المال والجاه دون أن أكون فى الحقيقة قد بذلت اى جهد حقيقى في خدمة الفن ، ولكن ايمانى بالفن كان دائما أكبر من أن أخضعه لهؤلاء الســـــادة من أشباه الكلاسيكيين الذين لا يفتأون ينعون الفن الى الناس ! .. ان للفن الجديد كلمته ،

ولسوف يقول كلمته كما قالت فنون القـــرون السابقة كلماتها ... الم أغرس ، هنا فى أرض ڤيمار الألمانية ، جـــذور الموسيقى السامية ، وعن فيمار تلقفتها فيينا وبرلين وميونيخ ؟ .. ذلك سبيلى ولن أعرف لى سبيلا غيره ما حييت ... » .

وهكذا كتب استقالته المسببة الى الدوق أمير ڤيمار ورحل عن امارته الى باريس بعد أن ضاقت نفسه بقيود الوظيفة وبدسائس الرجعيـــة الموسيقية فى ذلك البلاط الصغير !

لكنه دخل باريس فى هذه المرة وفى قلبه دموع ، فقد دفن ابنه الشاب الصغير « دانييل » الذى أودت به علة الصدر ، كما أشرف على الخمسين وسكن الضجر المر روحه الكبير .. ولقبه صـــاحبه القديم « برليوز » فاذا بالموسيقى الفرنسى المجدد قد غدا رجـــلا يتدثر بالنسيان والأفول ، قد حطم العقوق شعلته وفقد فى أخريات حياته شمس الجمهور الساطعة المدفئة ... ثم جاء « فاجنر » وفى صحبته الشاعر الرجيم « بودلير » الذى كان يخطب كل ليلة فى حانات باريس مبشرا بفاجنر العظيم وواصفا موسيقاه بالشعلة التى يسير فى نورها الفن الجديد .. وفى ذلك الوقت كانت « كارولين » عشيقة « ليست » جاثية على ركبتيها أمام البابا بيوس التاسع فى روما تسأله أن يصدق على حكم الطلاق الذى أصدرته لها الكنيسة الروسية ، دون أن توفق دموعها وتوسلاتها فى الوصول الى قلب السلطان الكهنوتى الأعلى .. قالت للبابا انها تريد أن يصدق على طلاقها كى تعيش مع فرانز ليست زوجة لا عشيقة ، وعندما علم حبيبها فى باريس بفشل مسعاها سافر اليها ليقول لها : ليكن ما أراد البابا ! نحن لم نجىء الى هذه الدنيا لنحتل مكانا شرعيا ، بل لنخـــدم فكرة ونؤدى رســـالة ! وان الحب نفسه هو الشريعة !

وماتت ابنته الكبرى وهى تضع طفلا ففقدت الحياة عنده كل معنى ، وانتقل من مسكنه فى هـــدوء الى دير فى مونت ماريو ، وارتدى عباءة الرهبـــان !

والآن يشاهد « الأب ليست » فى روما وهو فى عباءة الرهبـــان ، وان كان يعود فى رحلاته الفنية الى زى الفنانين المعروف !

وبعباءة الرهبان ظهر أمام خمسمائة عازف هنغـــارى عندما قاد بنفسه فى مدينة « بست » الأوركسترا الهائلة التى عزفت لحنه الدينى

« القديسة اليزابيث » ، وفى مساء اليوم نفسه عزف أحد مؤلفاته بمسمع من ثمانية آلاف مستمع فى بساتين صديق له من البارونات المثقفين ، وأمام النوافذ المفتوحة . . ومن العجيب أن « البابا » الذى أبى عليه الزواج من حبيبته قد زاره فى صومعته بالدير وطلب منه أن يزف لقداسته على الأرغن موسيقا « القديسة اليزابيث » الطيبة !

وبينما كان يعيش بقلبه الذى سكنه روح التجرد فى صومعته بدير « سنتا فرنشسكا رومانا » المشرف على الفورم ومعبد فينوس ، كانت تختمر فى حياة أقرب الناس اليه ــ ڤاجنر وكوزيما وبولوف ــ تلك المأساة الدقيقة التى يقف القلم أمامها حائرا وهو يحاول أن يطبق عليها ناموس الأوضاع المقررة !

والحق أن كوزيما ابنة « ليست » كانت تصغر فاجنر بأكثر من ربع قرن ، وأنها ابنة صديقه الحميم وزوجة صديقه الوديع الطيب بولوف ... ومع ذلك فقد جذبهما الحب وفرت معه الى عشه فى لوسرن !

وطار « ليست » وراءهما وفى ظنه أن حديثا قصيرا صريحا قد يعيد الأمور الى طبيعتها ، لكنه لم يكد يسمع موسيقا صاحبه التى عزفها له حتى سأل نفسه :

أفي وسعه أن يتكلم ؟ أليس أولى له أن يتجه الى الله بالصلاة كى يغفر خطايا أولئك الذين يصنعون للناس الجمال من أعصابهم ؟ . . وأحنى الانسان فيه رأسه وعاد آسفا تاركا ابنته لجذبة الروح !

وفى صباح يوم ١٤ فبراير من سنة ١٨٨٣ ــ كان فرانز ليست جالسا بعباءته فى الشمس ، عندما دخل عليه أحد أصدقائه وأبلغه أن فاجنر مات . .

لم تتوقف يده عن الكتابة ولم تختلج عضلة واحدة فى وجهه ، ومرت فترة طويلة قبل أن يقول دون أن يلتفت نحو زائره :

ــ ولم لا ؟!

ثم ساد الصمت من جديد ، لكن الشيخ رفع بعد قليل صوته قائلا :

ــ أنا أيضا ، دفنونى أكثر من مرة !

- ٦ -



كلما فكر الشيخ فى ابنته كوزيما ذكر نساء حياته كلهن وتنهد : ـ انهن مخبولات !

حتى فى شيخوخته كن يطاردنه .. ومنهن واحدة هى «أولجا جانينا» القوقازية التى تقتحم مسكنه متنكرة فى ثياب رجل وعلى ذراعها باقة من الزهر ، وهو شيخ فى مثل سن أبيها ، وتطارده من بلد الى بلد ، وتتوعده بقتله وقتل نفسها ، ثم تضع أمامه مسدسا وقارورة سم وتقول له :

ـ أيهما لك وأيهما لى ؟!

ومنهن واحدة أخرى هى « البارونة دى ميندورف » التى كانت تعبده عبادة علنية تكتب فيها الأغانى ! .. وكان اسمها هى أيضا « أولجا » وكان عصرها يدعوها « القطة السوداء » لفرط حبها للسواد فيما تلبس ، ولولا مرونة القطط التى تنعم بها تلك المرأة الهستيرية وارادتها التى لا يوهن منها صد أو نفور لما فازت بوده ! .. أما كوزيما ـ أرملة فاجنر ـ فقد كتب عنها أبوها :

« ان لغيرى أن يضعها موضع الاتهام ويصدر عليها حكما ، أما بالنسبة لى فانها روح كريم جدير بالغفران .. وانها لابنتى عن جدارة » ...

وفى السنوات الأخيرة من حياته كان فرانز ليست يكثر من الحج بروحه الى عهد فاجنر ، فيحج بين الحين والحين الى مدينة « بايرويت » حيث يناجى القبر والبيت والمعبد .. وقد فرغت نفسه الآن الا من ذكر الله يسبح بحمده على كل طريق في أوربا .. ويعزف « المسيح » وغيرها فى خشوع .. ويظل مع الموسيقى ولها حتى يقعده المرض فى فراشه ، وبينما هو راقد فى هدوء ينتظر الموت جاءه خادمه ببطاقة :

ـ سيدى ! ان رجلا غريبا يحوم حول البيت من الصباح ، وقد تردد طويلا قبل أن يطرق الباب ويدفع الى بهذه البطاقة ...

وقرأ الشيخ المريض اسم الرجل فى بطاقته فتحامل على نفسه وبرز للضيف بشعره الأبيض المنقوش ووجهه الطويل الشاحب وسترته الطويلة التى ينسدل عليها الشعر الطويل ، وعرف الضيف رب البيت فانحنى له ، وقال فرانز ليست لزائره وفى عينيه التماعة سرور :

ـ اســـمع يا الكسندر بورودين ! .. انك كتبت سمفونية مبتكرة جميلة ، فمرحبا بك !!

وقاد ضيفه الروسى النابغ الى غرفة البيانو فى الحال واتخذ مجلسه الى معزفه الكبير الوفى وعزف للضيف سمفونيته !

وكان الموسيقى الروسى طبيبا قبل أن تمسه بجناحها ربة الفن ..

ـ انى أعرفك يا الكسندر بورودين واعرف رفاقك الذين يصنعون الموسيقا الروسية الجديدة .. اعرفكم واحبكم .. لم أكد أســتمع الى أعمالكم الأولى حتى ادركت أن الموسيقا الروسية ، أيضا ، تدخل عصرا جديدا .. انتم طلائع موسيقا المستقبل !

وسكت الشيخ قليلا قبل ان يقول :

ـ الشىء الوحيد الذى يضايقنى هو أن يدى ترتعد الآن ، والطبيب الوقح يحاول أن يحرمنى من كمية الكونياك اليومية التى صارت منــذ سنوات بعيدة احدى عاداتى الكبيرة الثابتة !

وساد صمت قصير ، ثم عاد الروسى يسأل على استحياء :

ـ وبولوف ؟

ـ لقد انتهى غضبه منى لأنى لم اخاصم ڤاجنر ، واعادت وئامنا حفيدتى دانيللا ، وانه لشىء حسن يا سيدى !

* * *

وبعد أيام تقول له ابنته وهو على فراش الموت :

ـ أتريد ان ترى احدا ؟

ـ لا احـــــد !

ـ أتريد شيئا ؟

ـ لا شيء !

وقبيـل الفجـر أوقدت الشمـوع وغنت حفيدته بصوتها الرقيق المرتجف كضوء شمعة ، أمام جثة جدها ، تلك الأغنية التى كان يحبها :

« لا تعشق أبدا يا قلبى المسكين فلن تكسب من العشق
غير الخيبة والندم .. تمتع بالهوى واشبع عينيك وأرو
ظمأك وارقص واشرب وغن يا قلبى ، ولكن لا تعشق
أبـدا !! . . . . »

كتب سعد مكاوى

1 ـ قهوة المجاذيب
2 ـ شهيرة .
3 ـ مجمع الشياطين
4 ـ مخالب وأنياب
5 ـ راهبة من الزمالك
6 ـ نساء من خزف
7 ـ الماء العكر
8 ـ الزمن الوغد
9 ـ أبواب الليل
10ـ الرجل والطريق
11ـ السائرون نياما
12ـ لو كان العالم ملكا لنا !
13ـ القمر المشوى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

الثمن ٢٠ ص